المسلمون لماذا يكرهوننا؟ ولماذا نكرههم؟

الفصل الأول

البدايات الأولي للاستعمار الغربي

obeikan.com

obeikan.com

الإسلام وأوروبا

لأن تحقيق أمل البشرية يتم عبر تكامل الحضارات لا تصادمها.

هذه هي الحقيقة بكل ما ملكته من قوة وجبروت ونفوذ إلى طمسها والترويج لها بالأسلوب الذي يلائم مصالحها الأيديولوجية والسياسية المادية. وقد انبثقت عن سلوك النبذ هذا عقدة العداء الشرس لكل ما تشتم منه رائحة الإسلام. وقد اختلفت أشكال هذا العداء بين مادي الحروب ومواجهتها واستعمارات ، ومعنوى أو رمزي من تحريف للمعطيات ، وتشويه للحقائق ، وإفشاء للأكاذيب وإحداث للأراجيف.

أن العداء المادي يمس زائدة المتجمع في روحه ومرافقه ومعماره ، ويترتب عن ذلك شرخ بليغ، لكنه ومع ذلك فقد تتبدل تلك الآثار مع مرور الأيام ؛ لأنه بدوران التاريخ يتحول ذلك المجتمع إلى طور آخر من الحياة. ويبلغ مرحلة تاريخية تختلف عن التي سبقتها. فيصبح الحديث عن العداء المادي. أما من باب التذكير أو من باب البكاء على الأطلال غير أنه في علاقة الإسلام بالمسيحية يتخذ الأمر مساراً مغايراً. يبدو فيه الصراع بين الطرفين مستمراً إلى مالا نهاية. يتلبس بمختلف التسميات والمصطلحات [حروب صليبية ـ استعمار ـ صراع الغرب والشرق ـ مواجهة الإرهاب ـ صراع الإسلام والغرب] حتى إننا نشعر بأن المستقبل يعد بمواجهة عظمى بينهما.

أما العداء المعنوي أو الرمزي فيعتري المجتمع في معارفه وأفكاره وحقائقه ومعتقداته، فهو بذلك أشد وطأة من العداء المادي. حقا إن أثر العداء الأول يبدو جليا للعين. التي تشهد القتل والتنكيل والدمار والتخريب. ويحز بشكل عميق في

obeikan.com

النفس. التي تحذوها الجراحات والأورام لكن ومع ذلك. فإن كل تلك الملمات والويلات التي تصيب البدن والنفس والمال. لا تعادل طمس حقيقة واحدة من حقائق العقيدة الإسلامية. التي تجد أصلها في كلام الله. أو سنة رسوله الكريم ﷺ وفي هذا الإطار يمكن إدراج خطاب البابا «بنيديكتس» الذي يكشف عن عداء معنوي سافر للإسلام. حيث ينسب في أكثر من موضع من محاضراته سلوكا ما إلى الإسلام. وإن كانت الحقيقة غير ذلك.

وهذا نابع من النظرة العدائية التي تطغى على علاقة الكنيسة بالإسلام. وهي نظرة تحاول أغلب المؤسسات المسيحية تعميمها بين أوساط أنصارها أو مريديها في شتى أنحاء العالم مطعمة إياها بنشر حقائق مغلوطة عن الإسلام، تسري في عقولهم الجاهلية سريان السم في الدم.

ثم إن هذا العداء بتصنيفه المادي والمعنوي يسعى من خلاله إلى التنقيص من شأن الدين الإسلامي بأسلوب يوحي أنه عقلاني. ما دام أنه ينطلق من جملة من المعطيات التي يحسبها المسيحي العادي أمورًا حقيقية. فيسلم بها دون تشكيك أو تردد.

على هذا الأساس يمكن رد الرأي الشائع الذي يقول : بأن الإساءات التي تمارس من وقت لآخر، من لدن الغرب على الإسلام ، إنما هي ناجمة عن جهل أولئك المسيئين بحقيقة وطبيعة هذا الدين. وهذا رأي يعبر إما عن استخفاف الغرب بنا، أو بحق سذاجة من يأخذ به. وقلة معرفته بعلاقة الغرب بالإسلام ، لأن هذا الغرب استعمرنا أمدا طويلا. واستحوذ على طاقتنا البشرية والطبيعية ومكاسبنا التراثية والثقافية مكنته هذه التجربة التي كانت علينا وبالاً، وكانت له فتحا.

إن من يتعلم الكثير عن الدين والثقافة الإسلامية ، بل ويدرك طبيعة الهوية والشخصية الإسلامية، حتى أن مستشرقيه ومبشريه كانوا يدونون كل صغيرة

وكبيرة عن الإسلام.

وللأسف يأتي من يبرر ما قاله البابا .. معتبرا إياه يجهل حقيقة الإسلام عقيدة وحضارة.. وهم يعلمون أن البابا ليس شخصا عاديا. وإنما هو مثقف كبير، سبق له أن درس علم اللاهوت وتاريخ العقيدة في جامعة بون وغيرها منذ عام ١٩٥٩.

وهذا يعبر عن أنه يملك معرفة كافية عن الدين الإسلامي. وإلا فما هي الدلالات العميقة لهذه العبارات التي ضمها بيانه الشخصي. الذي تلا الضجة العارمة والتي أحدثتها محاضرته وهو يقول «إنني أشعر بأسف عميق لردود الفعل في بعض البلدان لفقرات قليلة من خطابي بجامعة «ريغينبورغ» والتي اعتبرت مسيئة لمشاعر المسلمين. لقد كانت هذه في الواقع اقتباسا من نص يرجع للعصور الوسطى. ولا يعبر بأي صورة عن فكري الخاص» إذا كان البابا يعتبر أن هذا النص الذي ذكره في محاضرته من العصور الوسطى، فكيف جاز له اليوم أن يردده في محاضرة له أمام جمع من المثقفين إن عذره وأسفه، غير إن هذا للأسف الموسوم بالعمق، ليس عميقا إلا على المستوى الشكلي، وإلا فلماذا يظل البابا متمسكا بالمقارنة المجحفة التي عقدها في محاضرته بين الإسلام والمسيحية. فماذا يمكن أن نعتبر هذه الازدواجية في الخطاب. أتناقضا غير مقصود. أم انفصاما مرضيا. أم عداء مقننا ضد الإسلام؟

صعود الإسلامو فوبيا في المجتمعات الغربية-

إذا راجعنا مراجعة سريعة لتكرار ظهور مصطلح الإسلاموفوبيا في بعض أشد الجرائد الغربية. نكتشف تلك الزيادة المطردة في استخدامه خلال السنوات الأخيرة بشكل عام وفي العامين السابقين.

استخدام وسائل الإعلام الغربية لمصطلح الإسلاموفوبيا يرتبط في العادة

بظواهر عدة مثل دفوع أو إحباط أحداث إرهابية تستهدف المجتمعات الغربية. مما يثير تساؤل الغربيين. حول وجود توجهات معادية للغرب وسط الأقليات المسلمة بالبلدان الغربية وحول توجهات المجتمعات الغربية ذاتها تجاه الإسلام والمسلمين.

ويرتبط ظهور المصطلح في آونة أخرى بالجدل الدائر داخل المجتمعات الغربية ذاتها حول طبيعة تلك المجتمعات وهوياتها ومواقف النخب السياسية الغربية من تلك القضايا. وما إذا كانت مشاريع النخب الغربية اليسارية المنادية بالتعددية والانفتاح الثقافي على المهاجرين والأقليات هي مشاريع مفيدة للغرب. أما إنها أضرت به كما يرى أصحاب التوجهات اليمينية المنادون بالعودة إلى التراث التقليدي للغرب.

كما ارتبط استخدام المصطلح بردود أفعال العالم الإسلامي تجاه بعض الأسماء التي تعرض لها الإسلام من قبل شخصيات ومؤسسات غربية مختلفة، كما حدث ردا على الرسومات الدانماركية المسيئة للرسول ﷺ، وردا على تصريحات بابا الفاتيكان في حق الإسلام مؤخرا.

ظاهرة الإسلاموفوبيا

شيوع مصطلح الإسلاموفوبيا هو في حقيقته انعكاس لتنامي ظاهرة يبحث لها الغرب عن تسميته. وقد يختلف البعض حول دقة المصطلح، ولكن هناك شعورا متزايدا بالظاهرة نفسها. ظاهرة الإسلاموفوبيا الغربية، وتشكيل هذه المشاعر أسسا لانطلاق سلوكيات غربية مجحفة بحقوق الأطراف المسلمة.

ظاهرة الإسلاموفوبيا على المستوى الفكري ترتبط بنظرة اختزالية للإسلام كدين وكثقافة في تصور الإسلام كمجموعة محدودة وجامدة من العقائد التي تحض على العنف والرجعية والنظرة السلبية للآخر. وترفض العقلانية والمنطق وحقوق

الإنسان. وهي معتقدات يؤكد المصابون بالإسلاموفوبيا أنها انعكاس مباشر لرسالة الإسلام نفسها.

وينظر المصابون بالإسلاموفوبيا إلى المسلمين على أنها مجموعة واحدة تؤمن من يتشدد بالفهم الاختزالي السابق للإسلام. وهم منخرطون في حركة سياسية عالمية لفرض هذه الرؤية على الآخرين في حرب حضارية لا تتوقف.

وانطلاقا من الرؤى السابقة يرى المصابون بالإسلاموفوبيا أن العداء للإسلام والمسلمين والتحيز ضدهم أمر طبيعي ورد فعل على طبيعة المسلمين الشريرة، لذا فهم يساندون التمييز ضد المسلمين وحشد قوي الغرب في حرب ضد الإسلام وأتباعه.

وبالطبع تمثل المعتقدات السابقة أساسا لتصرفات تمييزية ضد المسلمين. وقد تأخذ هذه التصرفات صورة المطالبة بسياسات تحد من حقوق وحريات مسلمي الغربي المدنية ، أو تخصصهم لمراقبة متزايدة من قبل السلطات الأمنية. وقد تأخذ صورة انتشار لمشاعر سلبية تجاه المسلمين داخل المجتمعات الغربية كرفض العيش بجوار جيران من المسلمين ، ورفض بناء المساجد والمؤسسات المسلمة.

وقد تتفجر أحيانا في صورة أحداث عنف وتمييز وجرائم كراهية ضد المسلمين. وهي أحداث توثقها بعض المنظمات المسلمة ومنظمات الحقوق المدنية الغربية.

البدايات الأولى للاستعمار الغربي

حيَّ معظم الغربيين سياسات الليبرالية الجديدة. وعقيدتها الفكرية باعتبارها الأداة الجوهرية بلا منازع للنمو الاقتصادي، والتطوير والازدهار ليس في الغرب فقط. بل وكذلك في الجنوب المعولم. غير أن المسئولين الحكوميين وذوي العقائد الوظيفية والذين تمسكوا بمثل هذه الآراء الأيديولوجية قد تجاهلوا العواقب

السلبية لمثل هذه السياسات الليبرالية الجديدة على الغالبية العظمى من شعوب الجنوب المعولم. أو إنهم لم يعترفوا بها أساسا على الإطلاق. فمن الواضح أن مثل هذه السياسات المفروضة خصوصاً على الدول المدنية تهدد استقلالها ، وتخلق صعوبات هائلة متزايدة على الكتلة الراجحة لشعوبها المختلفة. وتولد عمليات لإعادة توزيع الثروة الأعلى. كما تهدد الإحالة الثقافية والقيم التقليدية للناس العاديين.

وكانت هذه القضايا التي كثيرا ما طرحت بشكل مفصل من حيث جوانبها الثقافية. هي التي جعلت الأكاديمي صاموئيل هنتنغتون، يطرح مقولته المثيرة للجدل والخلاف عن العالم المعاصر، وهي أن الصراع العالمي القادم في أعقاب انتهاء الحرب الباردة. لن يكون صراع سلطة بين دول ، أو ائتلافات دولية على الموارد والأسواق الاقتصادية ، أو على المواقع الجغرافية – والإستراتيجية. بل إنه سيكون صراع «حضارات» فالتجمعات الحضارية آخذة في الحلول محل كتل الحرب الباردة ، وخطوط الشروخ بين الحضارات صارت هي الخطوط المركزية في السياسة العالمية. وعند هنتنغتون «أن الإسلام هو قوة الظلام في العالم» بسبب نزوع المسلمين إلى الصراع العنيف.

وقد نوقشت مقولة هنتنغتون هذه كثيرا في الولايات المتحدة من الجوانب المؤيدة والمعارضة لها على حد سواء. غير أنها مناقشة أكاديمية نظرية ذهنية إلى حد كبير. مفتقرة إلى أي قبول فكري. وخالية من أي تبعات سياسية. أو إستراتيجية سياسية – عسكرية. ولكنها تلقت تقريرا ضخما بعد هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١.

فبعد الهجمات. تجسدت عمليا وبسرعة شديدة هستريا محمومة ضد الإسلام وضد العرب في أجهزة الإعلام، وفي صفوف بعض قطاعات الجمهور الأمريكي،

وبين كثير من الساسة، وتلقت هذه الهستيريا الخطابية تشجيعيا كبيراً من أنصار إسرائيل من النشطاء والساسة، والمثقفين الشعبيين، وكتاب الأعمدة في كل أجهزة الإعلام، فسارعوا إلى رسم أوجه الشبه والتناظر بين الإرهاب المستلهم للإسلام ضد إسرائيل والإرهاب المستلهم للإسلام ضد الولايات المتحدة. بل إن بعضهم أعلن أن اصطدامًا أو حربًا حضارية قد بدأت.

وارتكبت هجمات كلامية وجسدية، يشار إليها شعبيا وقانونيا بأنها «جرائم كراهية». ضد الأمريكيين العرب ، والأميركبين المسلمين في جميع أنحاء البلاد. وكان سيل الشتائم الكلامية، والهجمات الجسدية، والمضايقات التي كان من اللافت للأنظار أنها وصلت أيضا إلى حرم الجامعات من السعة والانتشار بحيث شعر المسؤولون الحكوميون الأميركيون بالحاجة إلى رفع صوتهم بعدم الموافقة عليها وتحذير الجمهور من ارتكاب «جرائم كراهية» مخالفة للقانون.

وفي إشارة رمزية بعد الهجمات ضد كل ما هو عربي أو مسلم أمريكي كان وغير أمريكي مما شكل خطرًا كبيرًا على الوضع السياسي والاقتصادي للولايات المتحدة في العالم. وخاصة في العالمين العربي والإسلامي.

زار الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن والذي يعتبر هو من فجر هذه الصراعات في أحاديثه عندما هاجم المسلمين والعرب واعتبر عودة الحروب الصليبية ، وأركان إدارته من العناصر اليمينية - اللوكودية. مركز واشنطن الإسلامي، وهو المسجد الرئيسي في المدينة. ومثل كثير من المسؤولين، بذل جهداً شاقاً للتمييز بين الإسلام، والأميركيين العرب والأميركيين المسلمين الملتزمين بالقانون من جهة، والإرهابيين الذين يتكلمون ويعملون باسم الإسلام من جهة أخرى، وفي ذلك الوقت كانت مثل هذه التحذيرات الحكومية الرسمية والإعلامية

إشارات تبشر بالأمل ويمكن أن تطفئ فتيل الخطاب الملتهب المعادي للعرب والمسلمين.

ومع ذلك فقد استمرت وتماديت التعليقات العنصرية. وتجميع المعلومات عن المسافرين الجويين العرب والأميركيين المسلمين، والتمييز في الوظائف وفي أماكن العمل وكذلك الأشكال الأخرى من المضايقة وإساءة المعاملة.

ففي تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠١، قيل: إن أشكروفت قد قال في مقابلة إذاعية مع مضيف محافظ: «إن الإسلام دين يطلب فيه الله منك أن ترسل ابنك ليموت في سبيله، أما المسيحية فهي عقيدة يرسل الله فيها ابنه ليموت في سبيلك».

علاوة على ذلك لاستمرارية العداء وتشويه الإسلام فإن كاتبة العمود الصحفي آن كولتر، في نوبة غضب جامح اقترحت بقولها: «ينبغي علينا أن نغزو بلادهم [تقصد المسلمين] ونقتل قادتهم، ونرغمهم على اعتناق المسيحية».

وكانت عاصفة الغضب والحنق والمطالبة بالعمل من قبل الساسة، والمثقفين الشعبيين، ووسائل الإعلام، تؤكد على الحاجة إلى حماية أميركا والأميركيين من المزيد من الهجمات. ومن بلاء الإرهاب الدولي الإسلامي.

وبعد عشرة أعوام من انهيار الشيوعية وإنهاء الحرب الصليبية المعادية للشيوعية. وفي اللحظة التحديدية لهجمات ١١ سبتمبر. عثرت أميركا الرسمية أخيرا على حرب صليبية جديدة – هي الحرب على الإرهاب، وهي تركيبة فكرية كهربت بسهولة سكانا جرحتهم الهجمات. وبررت سياسات أميركا المحلية والدولية، وزودتها بالمكانة الأخلاقية العالية المبررة لكل أعمالها التالية. وأدى قانون الوطنية إلى قمع وتآكل الحريات المدنية التي احتضنتها الولايات المتحدة زمناً طويلاً. فلم يكن مدهشاً أن يقوم مكتب التحقيقات الاتحادي باعتقال الألوف من الأميركيين العرب

والمسلمين بالجملة دون أي أساس قانوني. وقد اعتقل معظمهم دون أسباب محتملة سوى حقيقة أصلهم العرقي ودينهم. وهذا خرق واضح للمبادئ القانونية الراسخة منذ زمن طويل، لمبدأ كون المرء بريئا حتى تثبت إدانته، وعدم احتجازه مدة طويلة دون اتهام.

فقد مرر الكونغرس الأمريكي لائحة قانون. الوطنية الأميركية وصوت لصالح ميزانية ضخمة وفريدة لخوض «الحرب القادمة على الإرهاب».

وبذلك شنت الولايات المتحدة الحرب على الإرهاب مزودة بأضخم ميزانية عسكرية وثورة إعلامية تساند هذه الحرب ، حيث هاجمت أفغانستان بهدف إزالة حكم طالبان. فأحدثت تغييرًا للنظام ، ودمرت البنية التحتية.

ما هي الجذور المحلية لحرب أمريكا الصليبية على الإرهاب

إن انحياز الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل سياسيًّا وعسكريًّا وفكريًّا وعقائديًّا. ليس عفويًّا. ولا غير مقصود في شكله الحالي. بل هو تتويج لتيارات سياسية وفكرية أمريكية محلية . ظلت في طور التكوين زمنا طويلا. ومقولتي هي أنه بالرغم من كون الحرب الصليبية الأمريكية الحالية على الإرهاب ذات جذور محلية عميقة. فإنها تأثرت كثيرًا ، وتعززت بأعمال وأقوال وشعارات خطابية وضغوط إسرائيلية داخل دهاليز السلطة الأمريكية. وفي الحياة الأمريكية العامة. بل لا نذهب إلى أبعد من ذلك عندما نقول : بأن الدعم لإسرائيل والحرب الصليبية المضادة للإرهاب. وتفاقمها مؤخراً. قد صارت كلها قضايا أمريكية محلية. ولم تعد مجرد قضايا خاصة بسياسة أمريكا الجنوبية.

وهكذا فإن الحرب الصليبية على الإرهاب، والدعم الذي لا يتزعزع. ولا ينتفي لسياسات إسرائيل وأعمالها – الليكودية – ليس تجاه الفلسطينيين فحسب. بل تجاه

العراق، وإيران وسوريا، وهذا هو جزءٌ من التوجه السياسي الذي له بعده المحلي وجانبه السياسي الخارجي. فلنتوجه إذن إلى السباق الأمريكي المحلي، لأن المرء عندما يريد تميز المد العالي يجب عليه أولاً أن يتفهم التيارات السياسية المحلية.

إن متابعة السعي لإقامة إمبراطورية، وهو سعي قائم على قدم وساق بلا هوادة منذ زوال الاتحاد السوفيتي.قد شهدت في المقابل ناقلاً مماثلا في الشرعية الدولية. فقد ترك القانون الدولي ليسقط على جانب الطريق. بينما تعرض توازن القوى ومناطق النفوذ إلى تآكل خطير تحت تأثير النزوع الأمريكي إلى التصرف من جانب واحد، وإلى الاعتماد على الحروب الوقائية. ولم يكن من قبيل المصادفة أو المفاجأة أن تهمل الولايات المتحدة معاهدات وتشريعات دولية مثل معاهدة حظر القذائف ذاتية الدفع، وميثاق الأسلحة الكيميائية. والمحكمة الجنائية الدولية ، وبروتوكولات كيوطو.

لا يمكن أن يكون هناك حياد بين العدالة والقوة بين البريء والمذنب، أو تخوض صراعا بين الخير والشر. وسوف تنادي أمريكا الشر باسمه.

وحسبما ذكرت شركة الأخبار الإذاعية الاسترالية ... فإن الدين صار أحد العوامل في غزو العراق إلى درجة أن المجندين – قد طلب منهم في أحد الكراسات أن يصلوا من أجل بوش على أساس يومي – بما في ذلك الدعاء. بأن يكون الرئيس ومستشاروه شجعاناً وأقوياء في عمل ما هو حق. بغض النظر عن النقاد. وقد لخص المرشح الرئاسي السابق جورج ماكغفرت رسالة بوش المقدسة هكذا.

كثيرا ما يسر الرئيس جورج بوش الابن .. إلى الأشخاص والمستمعين الأصدقاء«أن يد الله هي التي تقوده».

ولكن إذا كان الله هو الذي قاده إلى غزو العراق. فإن الله قد أرسل رسالة مختلفة

إلى البابا ، ومؤتمر المطارنة الكاثوليك ، ومجلس الخط الرئيسي للكنائس البروتستانتية الوطنية وكثير من الحاخامات المتميزين – الذين يعتقدون جميعا أن غزو العراق وقصفه بالقنابل هو ضد مشيئة الله.

مواقف الكنيسة

بعكس الموقف الديني للغرب. ذلك الموقف الذي أصبح ملاحقا للموقف السياسي. بل ومحرمة له بصورة سابقة لها. ولقد ارتبط مفهوم السلطة السياسية بالسلطة الكنسية منذ أولى خطوات الاستعمار وتواكبت جهود الآليات الحرية والعسكرية بآليات المبشرين والمستشرقين لتنظم إليها – حاليا – فرق المثقفين والمفكرين.

إلا أن ما يدور على الصعيد العالمي. من منتصف الستينيات لم تعد أحداثه بحاجة إلى إثبات وأدلة.. فما علي المرء إلا أن يتابع مجريات الأمور ليدرك التحالفات الغربية التي تمت منذ فجر التاريخ. الذي يمثل نهاية انعقاد المجتمع المسكوني الفاتيكاني الثاني [١٩٦٢–١٩٦٥] ذروته المتفردة وليدرك كيف أصبح الفاتيكان بمثل قوة محركة رهيبة للأحداث السياسية.

قام بعض المسؤولين عن تلك الدولة يخفون تدخلا فيها. بل لقد أصبح البابا يقولها صراحة «إن الكرسي الرسولي يسعى إلى التدخل لدى حكام الشعوب والمسؤولين عن مختلف المحافل الدولية. أو الانضمام إليهم بمحاورتهم أو إخضاعهم على الحوار لمصلحة المصالحة وسط صراعات عديدة.

ولم يعد خافيا على أحد كيف تضافرت الجهود السياسية والكنسية لاقتلاع اليسار. لا كبديل للرأسمالية. وذلك بسبب نظامه الاجتماعي الاشتراكي فحسب. وإنما لإلغائه الوجود الكنسي برمته ، ومنعه من استخدام النفوذ الديني بغية

التواصل إلى مكاسب اجتماعية. وما أكثر المراجع التي تناولت هذا التضافر الحميم بين الكرسي الرسولي، والمخابرات المركزية الأمريكية، والأيادي المتواطئة المحلية والتي سرعان ما يبادرون بفضح دور تواطئها.

كما لم يعد خافيا على أحد كيف تتضافر الجهود السياسية والدينية لاقتلاع الإسلام. كبديل للمسيحية التي تم تحريفها عبر المجامع على مر العصور. فلقد تصدعت أركان الكنسي بسبب كل ما فرضه على أتباعه من تحريف. لم يعد معه المتلاعبون بقادرون على دور ما قاموا ما يزالون يقومون بها.

لقد برأ المجتمع الكنسي اليهود من دم المسيح. كما ظلوا يرددون في كل قداس «أحد» لمدة ألفي عام تقريبا. وهي مصالحة سياسية بحته لتوحيد الصفوف في مواجهة الإسلام. فلا يزال اليهود على موقفهم من حيث رفضهم الاعتراف بالمسيح. ورفع سبة العار عن أمه التي اصطفاها الله في القرآن الكريم. بينما يواصل اليهود وصف حملها «بالزنى».

لم تكن محاولة القضاء على الإسلام بالجديدة، بل منذ القدم هناك مثل هذه المحاولات. وأصبحت اليوم تتم علنا وعلى صفحات الجرائد والمجلات والقنوات التي أسست من أجل تشويه صورة الإسلام.

وذلك بعد أن أعلن البابا يوحنا بولس الثاني صراحة مطالبا بضرورة إعادة تنصير العالم، بمعنى أن يبادر بتنصير البلدان التي يقتلها من براثن الإلحاد قبل أن يدخل في الإسلام واقتلاع الإسلام – حتى لا يبقى على الصعيد العالمي سوى الكاثوليكية روما.

إن عملية التنصير لم تعد قاصرة على قطاع المبشرين والمستشرقين فحسب. وإنما لقد فرضها البابا في خطابه المعنون «رسالة الفادي» عام ١٩٨٧ على كافة أتباع

المسيحية أينما كانوا وأياً ، كان انتماؤهم العقائدي. وذلك بموجب عقيدتهم. واستنادًا إلى تضحية السيد المسيح.

من الثابت تاريخياً أن محاربة الإسلام قد بدأت منذ أول ظهوره وبداية انتشاره. بل هناك من الأبحاث والمراجع ما يثبت أن محاربته بدأت قبل ظهوره.

ومنذ ذلك الوقت. لم تكف محاربة الإسلام وإن اختلفت المسميات وتنوعت الأساليب إلى أن كان المجمع المسكوني في الفاتيكان في الثاني عام ١٩٦٥ الذي تتخذه نقطة تحول. فقد أسفر هذا المجتمع عن قرارين أساسيين لا سابقة لهما في التاريخ فيما يتعلق بالديانات غير المسيحية وهما: تبرئة اليهود من دم المسيح ، وإقرار مبدأ التحاور مع الإسلام لاقتلاعه.

ولا يتسع المجال لتناول كافة المؤثرات التي تتعقد الدراسة كيفية تحقيق المزيد من التوغل والاختراق للعالم الإسلامي لإبادته. لكننا نشير على سبيل المثل إلى مؤتمرات «لوزان للتنصير عام ١٩٧٤، وخاصة مؤتمر «كولورادو» في شمال أمريكا عام ١٩٧٨ الذي حضره مائة وخمسون عالما متخصصا في شئون التنصير. ونمت خلاله دراسة أربعين مبحثا تناول كل منها منفذا من المنافذ التي يمكن التسلل منها لتنصير المسلمين. ومؤتمر «مسيحي الشرق» المنعقد في باريس عام ١٩٨٥، وقبله بعام واحد المؤتمر المنعقد في إيطاليا. والذي حضره حشد كبير مكون من ستة آلاف قس تجمعوا من مختلف أنحاء العالم لتدارس كيفية استخدام الوسائل السمعية والبصرية في التنصير وفي التكوين الديني.

البدايات الأولى للاستعمار الغربي للعالم الإسلامي:

لقد بدأ الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي في القرن السادس عشر حينما احتلت هولندا الجزر الأندونيسية في سنة ١٥٥٢، واستمر احتلالها لها لمدة ثلاثة

قرون ونصف القرن، حيث استمر الاحتلال الهولندي لأندونيسيا إلى سنة ١٩٤٥. ثم احتلت روسيا القيصرية قازان عاصمة تتارستان في سنة ١٦٠٢. ثم وصلت الأساطيل البريطانية إلى شبه القارة الهندية في سنة ١٧٥٧، فاحتلت إنجلترا الهند التي كانت عندئذ تحت حكم دولة إسلامية، واستمر احتلالها لها مائة وتسعين سنة، إلى أن استقلت الهند في سنة ١٩٤٧. احتلت فرنسا الجزائر، واستمر الاحتلال مائة واثنتين وثلاثين سنة إلى سنة ١٩٦٢.

وفي سنة ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر، واستمر الاحتلال إلى سنة ١٩٢٣، وفي سنة ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس. وفي السنة ذاتها احتلت بريطانيا قبرص. وفي سنة ١٨٢٩ احتلت بريطانيا جنوب اليمن واستمر احتلالها لها إلى سنة ١٩٦٧، وفي سنة ١٨٥٧ احتلت فرنسا السنغال واستمر الاحتلال إلى سنة ١٩٦٠، وفي سنة ١٩٠٣ احتلت بريطانيا نيجيريا.

واحتلت إسبانيا في سنة ١٨٨٤ الصحراء المغربية، في جنوب المغرب، وأطلقت عليها اسم (الصحراء الإسبانية)، واستمر احتلالها لها إلى سنة ١٩٧٦. وفي سنة ١٩١٢ احتلت فرنسا ثم إسبانيا في آخر السنة نفسها، المغربَ تحت غطاء الحماية. وفي سنة ١٩١١ غزت الجيوش الإيطالية ليبيا (بنغازي وطرابلس)، فاندلعت الحرب الإيطالية ـ العثمانية على مدى السنتين (١٩١١ - ١٩١٢)، باعتبار أن ليبيا كانت في تلك الفترة، جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ - ١٩٣٩) احتلت فرنسا إقليم فزان الليبي، واحتلت إنجلترا بنغازي وطرابلس، واستمر هذا الاحتلال الفرنسي والبريطاني لليبيا إلى سنة ١٩٥٢.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، بدأت الأطماع الأوروبية تتجه نحو الإمبراطورية العثمانية التي عُرفت في تلك الفترة بالرجل المريض، فعمدت الدول

Obeikan.com

الأوروبية إلى تحريض روسيا القيصرية ضد الأقاليم الإسلامية المجاورة لها، فقامت بغزو منطقة القرم، وقادت حروباً طويلة للاستيلاء على الأراضي شمالي القوقاز. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بسطت روسيا نفوذها على آسيا الوسطى، فاحتلت أذربيجان في سنة ١٨٢٨.

وتفجّر الصراع بين العالم الإسلامي والغرب من جديد مع أواخر القرن التاسع عشر، في شكل الحرب الروسية العثمانية التي اندلعت في الفترة ما بين (١٨٧١ و ١٨٧٨) بتواطؤ من الدول الأوروبية أيضاً. وأثناء فترة الحرب العالمية الأولى(١٩١٨ - ١٩١٤) انهزمت الإمبراطورية العثمانية، وتمّ تمزيقها إلى مجموعة أقاليم ما لبثت أن أصبحت دولاً قائمة الذات؛ فاستولت فرنسا وانجلترا على الولايات العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية، والتي تشمل أقاليم الشام أو سورية الكبرى (سورية ولبنان وفلسطين والأردن اليوم)، والعراق. ثم امتد الاحتلال لهذه الأقاليم تحت غطاء الانتداب إلى سنة١٩٤٣ ، بالنسبة لسورية ولبنان بموجب قرار عصبة الأمم. وتأسست إمارة شرق الأردن (نواة المملكة الأردنية الهاشمية اليوم) في سنة ١٩٢١.

واستمر الاحتلال البريطاني لفلسطين تحت مسمى الانتداب، وتحت غطاء دولي، إلى سنة ١٩٤٨، عندما استغل اليهود الوضع فأعلنوا عن تأسيس دولة إسرائيل في ١٥ مايو من سنة ١٩٤٨ في مخالفة واضحة للقانون الدولي، حيث أقيمت هذه الدولة في إقليم له سكانه الأصليون هم الشعب الفلسطيني الذي تم تهجيره والاستيلاء على وطنه. ولا يزال هذا الوضع المأساوي غير القانوني الذي نتج عن احتلال فلسطين وتهجير شعبها، هو السبب الرئيسي في تدهور الأحوال، وفي تهديد الأمن والسلم الدوليين، ليس في منطقة الشرق الأوسط، وإنما في العالم أجمع. وهو

أخطر أزمة تتهدد العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب في الحاضر والمستقبل، مما يضعنا أمام مفتاح الأزمة الدولية المتمثلة في انسداد الأبواب أمام تسوية عادلة لها في إطار الشرعية الدولية، تردّ الحقوق الوطنية المشروعة إلى الشعب الفلسطيني بقيام دولته المستقلة بعاصمتها القدس.

هكذا دخل العالم الإسلامي القرن العشرين وأقطاره محتلة، وأجزاؤه ممزقة، وأوضاع شعوبه متدنية اقتصادياً واجتماعياً بصورة بالغة السوء. ولقد امتدت تداعيات هذه الأوضاع وآثارها السلبية إلى مرحلة ما بعد تأسيس الدول العربية الحديثة في العالم العربي الإسلامي، مما تسبّب في اندلاع أزمات سياسية متلاحقة، وفي نشوء ظروف اقتصادية صعبة.

الوقوف في وجه طموح الشعوب الإسلامية:

لقد كانت الأنظمة السياسية في العديد من دول الغرب طوال ما يزيد على قرنين من الزمن، تقف في الصف المعادي لإرادة الشعوب الإسلامية والمناهض لحقها في الحياة الحرة الكريمة، والمعاكس لتوجّهاتها نحو بناء المجتمع القوي المستقر الذي تزدهر فيه الحياة السياسية والاقتصادية، ويتمتع فيه الإنسان بحقوقه المشروعة. وقد ترتب على هذه السياسة التي اتبعتها الأنظمة السياسية في تلك الدول الغربية تجاه شعوب العالم الإسلامي لعقود متطاولة، أن نشأ رأي عام يحمّل الغربَ مسؤولية هذه الأوضاع، وتوتّرت العلاقات على مستويات عديدة بين الطرفين، ولا تزال إلى اليوم.

إنَّ هذه الخلفيات التاريخية الحديثة والمعاصرة، إذا أضفنا إليها خلفيات العصور الوسطى، نجد أنفسنا أمام ركام هائل من الخصومات التاريخية الناتجة عن سوء الظن وعدم الثقة، واحتدام الصراع الذي يتخذ أشكالاً تتفاوت بين الخفاء والظهور من عصر إلى آخر.

شهادة أرنولد توينبي:

يصوّر المؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد توينبي) أحوال العالم الإسلامي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، تصويراً دقيقاً، في محاضرة له في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، حيث قال في لحظة صدق ومكاشفة: «إننا ظللنا نطارد الرجل التركي (يقصد الرجل المريض، وهو كناية عن الإمبراطورية العثمانية) ونهاجمه لكي يترك دينه، لأنه كان ينظر إلينا من علينا كأننا خنازير برية، فلما ترك دينه وتبعنا احتقرناه، لأنه لم يعد عنده ما يعطيه».

وهذا تلخيصٌ للأزمة الحضارية التي نكب بها العالم الإسلامي. وتلك حقيقة من حقائق التاريخ المعاصر، تظهر لنا جوانب من الخطة التي دبرتها مجموعة من الدول الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين، لتمزيق العالم الإسلامي، ولإضعافه، ولاستغلال موارده الطبيعية من أجل بناء الاقتصاديات الأوروبية المزدهرة في تلك المرحلة، مما كان له مضاعفات سياسية ونفسية وثقافية على مجمل العلاقات التي تربط دول العالم الإسلامي بالدول الأوروبية، وبالولايات المتحدة الأمريكية التي تقف بكل إمكاناتها مع إسرائيل وتدعمها في جميع المجالات.

وللأمانة التاريخية وللموضوعية المنهجية، نؤكد هنا أن هذه الخلفيات جميعاً، ساهمت في تشكيل العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب على مستوى اللاوعي الجمعي، وعلى مستوى الواقع. ولا سبيل اليوم إلى فهم طبيعة هذه العلاقات وإدراك أبعادها، إلاّ من خلال الوقوف على تلك الظروف التاريخية الآنفة الذكر، والتي لا تزال تعمل عملها في الحاضر، ولربما في المستقبل.

إنَّ الأوضاع التي نشأت عن الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي، تسبّبت في ظروف لم تكن مواتية على الدوام للنموّ والتقدم والازدهار. فقد وجدت الدول

العربية والإسلامية نفسها بعد الاستقلال، أمام أزمات كبيرة نتيجة لشيوع الفقر والجهل والمرض وسوء الإدارة والفساد، ولانعدام الشروط الموضوعية لإقامة هياكل جديدة للدولة المستقلة. وقد ترتبت على تلك الأوضاع مشاكل كثيرة ظلت تتفاقم، فتعطّلت عملية النمو في مناطق، وتعثرت في مناطق أخرى، وتباطأت في جل الأقطار. وعلى الرغم من أن قلة من الدول العربية الإسلامية، قد عرفت كيف تستثمر مواردها وإمكاناتها وتحقق معدلات معينة من النموّ والتقدم وتحسّن من مستويات مواطنيها، فإن غالبية دول العالم الإسلامي تعاني اليوم من مخلفات عهود ما قبل الاستقلال. وإن كانت العوامل المتسببة في بطء النمو لا تعود دائماً إلى ظروف الاستعمار، فكثير منها ينبع من الداخل، لأسباب كثيرة لا يسمح المجال بالخوض فيها.

إنَّ تأزم الأوضاع الاقتصادية وتدهور الخدمات التي تقدمها بعض الحكومات لمواطنيها في جل دول العالم الإسلامي، سواء بسبب شح الموارد وقلة الإمكانات، أو بسبب سوء التسيير وانعدام الخبرة، قد أدّى إلى نشوء مشاكل اجتماعية كثيرة، منها تنامي الشعور بالظلم والحرمان، وتصاعد نبرة الغضب والاحتجاج بين فئات غير قليلة من المواطنين، مما كان له الأثر القوي في ظهور تيارات العنف والتطرف وانتشار الأفكار الرافضة والتيارات الساخطة، وفي ردّ أسباب الأزمات إلى الدول الاستعمارية سابقاً، واتهامها بالمسؤولية عن فساد الأوضاع وسوء الأحوال، الأمر الذي ينعكس سلبياً على العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب.

ولاشكّ أن الدول الغربية الواسعة النفوذ سياسياً واقتصادياً، تتحمّل اليوم قسطاً من المسؤولية إزاء ما تعاني منه الشعوب الإسلامية من أوضاع اقتصادية صعبة، وحيال اضطراب حبل الأمن والسلم في منطقة الشرق الأوسط، وفي

فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال وغيرها.

دور الغرب في صنع مأساة فلسطين :

ومعلوم أن تدهور الوضع في الأراضي الفلسطينية إلى هذه الدرجة الخطيرة التي وصلت إليها، واستمرار الاحتلال الإسرائيلي لها، وممارسة سلطات الاحتلال لسياسة القمع والقتل والتهجير والمطاردة في حق الشعب الفلسطيني، ووجود الآلاف من المواطنين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، كل ذلك يخلق حالات من التذمر والسخط والكراهية في أوساط الشعوب الإسلامية عموماً، وليس لدى الشعب الفلسطيني فحسب، ويتسبّب في تحميل الغرب المسؤولية المشتركة مع إسرائيل في استمرار هذا الظلم. وتلك هي المسألة التي على الغرب أن يتفهمها ويعمل على معالجتها بما يردّ الحقوق إلى أصحابها الشرعيين، ويؤدي إلى استتباب الأمن والسلم في هذه المنطقة من العالم. ولن تستقر العلاقات بين شعوب العالم الإسلامي والغرب بصفة عامة، إلاّ إذا عولجت هذه المسألة معالجة عادلة تردّ الأمورَ إلى نصابها، وتقضي نهائياً على أسباب الأزمة.

وحتى تتبيّن معالم الصورة بالوضوح الكامل، نسوق ثلاثة أمثلة عن بعض المواقف غير المسؤولة التي تتخذ ، والآراء المتطرّفة التي يُعبر عنها في الغرب، والتي يكون لها نتائج سيئة للغاية لدى الرأي العام الإسلامي، والتي تنعكس آثارها السلبية على مجمل العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب.

اعتراف صريح من الرئيس ريتشارد نيكسون :

يقول الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه (الفرصة السانحة) : «إن الإسلام والغرب متضادان، وإن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين : (دار الإسلام) و(دار الحرب) حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية، وأن المسلمين

يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضدّ الغرب، وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفييتي (قبل أن يسقط ويتمزق) ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة».

وهذا الرأي الذي نشر في كتاب ترجم إلى عدة لغات عالمية، ومنها اللغة العربية، يساهم في تأجيج روح العداء، وفي تأليب قطاعات واسعة من أبناء العالم الإسلامي ضد الغرب. والرئيس نيكسون في القسم الأول من هذا الرأي يجانب الحقيقة تماماً.

أما في القسم الثاني، فيعبر نيكسون عن رأي يتبناه قطاع عريض من صانعي القرار والنخب الفكرية والثقافية وأوساط واسعة من بين الشعوب في الغرب. وهذا موقف غير سليم لا ينمّ عن الحكمة وبعد النظر، ويعكس في الوقت ذاته نوايا ليست بريئة.

وفي هذا السياق أيضاً، يقول الكاردينال (بول بوبار) مساعد بابا الفاتيكان السابق، ومسؤول المجلس الفاتيكاني للثقافة، في تصريح إلى صحيفة (الفيجارو) الفرنسية :

(إن الإسلام يشكل تحدّيا بالنسبة لأوروبا وللغرب عموماً، وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيراً ضليعاً لكي يلاحظ تفاوتاً متزايداً بين معدّلات النموّ السكاني في أنحاء معينة من العالم؛ ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النموّ السكاني بشكل تدريجي، بينما يحدث العكس في البلدان الإسلامية النامية، وفي مهد المسيح ـ هكذا يقول الكاردينال بول بوبار وهو يقصد الشرق الأوسط، وتحديداً البلدان العربية ـ يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجاً بشكل ما ؟ .. إنّ التحدّي الذي يشكله الإسلام يكمن في أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، في حين أن المسيحيين في أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع.

الإسلام لا يشكّل خطراً على أمة أو شعب أو دين :

أما كون الإسلام دينَ ثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فهذا صحيح لا شكّ فيه، وحقيقة من حقائق هذا الدين. وأما القول بأنه يشكّل تحدّياً للمسيحيين باعتباره ذاك، فهو قول باطل لا أساس له من الصحة إطلاقاً. وهو قول يزيد في تأزيم العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب، وتتبنّاه قطاعات واسعة من أبناء الغرب.

إنَّ الإسلام لا يشكّل تحدّياً ضدّ أمة أو شعب أو دين، أو ضدّ قانون من القوانين الدولية، وإنما العداء للإسلام وكراهية المسلمين وممارسة سياسة التمييز ضدهم، وانتهاك القوانين الدولية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، إن ذلك هو الذي يشكّل تحدياً حقيقياً، لا للغرب فحسب، ولكن للعالم أجمع، ويهدّد استقرار العلاقات الدولية، وخصوصاً علاقات العالم الإسلامي بالغرب.

ويعزّز هذا التوجّه غير السليم الذي يذكي نار الكراهية والتمييز والصراع، ما قاله (جياني ديميكليس) رئيس المجلس الوزاري الأوروبي في مطلع التسعينيات من القرن الماضي في حديث إلى مجلة (النيوزويك)، إذ سئل : «ما مبررات بقاء حلف الأطلنطي ـ الناتو ـ بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالي والمعسكر الذي كان اشتراكياً ؟». فأجاب بقوله : «صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة، إلاَّ أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحلّ محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي». فلما عاد مراسل (النيوزويك) ليسأل : «وكيف يمكن تجنّب تلك المواجهة المحتملة؟». قال (جياني ديميكليس) : «ينبغي أن تحلّ أوروبا مشاكلها، ليصبح النموذجُ الغربيُّ أكثر جاذبية وقبولاً من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم. وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي، فإن العالم سيصبح مكاناً في منتهى الخطورة.

وهذا الكلام من مسؤول كبير في الاتحاد الأوروبي، ينطوي على تهديد سافر للعالم الإسلامي. وهو رأي يتعارض كلياً مع قواعد القانون الدولي، ومع الحق في الحفاظ على الخصوصيات الثقافية للشعوب.

إنَّ هناك شعورًا متزايدًا يسود الشعوب الإسلامية بأن الإسلام مستهدفٌ من جهات متعددة. والعقلاء في العالم الإسلامي يبذلون جهوداً في إبعاد الناس عن سوء الظن، وفي القضاء على (فكرة التآمر) الذي يستهدف الإسلام والمسلمين، من منطلق أن سوء الظن هو نقيصة من النقائص التي تنهى عنها التعاليم الإسلامية.

اختراق الإسلام إعلانٌ للعداء ضدّه :

وعلى سبيل المثال، نورد هنا ما جاء في وثائق (مؤتمر كولورادو) الذي انعقد في الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٧٨، تقول إحدى هذه الوثائق عن الإسلام ما يلي : «إنه الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية .. والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا .. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز لفهم الإسلام، ولاختراقه في صدق ودهاء. ولذلك لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين».

إنَّ مثل هذه الخطط المريبة التي تُعدُّ لغزو العالم الإسلامي، يكون لها أسوأ النتائج وأخطر المضاعفات، إذ تساهم في تأليب الشعوب الإسلامية ضد الغرب بصورة عامة، وتؤدي بصورة تلقائية إلى إذكاء نوازع النفور بدلاً من تقوية مشاعر التفاهم والتسامح. ففكرة (اختراق الإسلام) من الأفكار الخطيرة التي تروج في أوساط عديدة، وهي شبيهة بفكرة (صدام الحضارات) التي تكاد أن تسيطر اليوم على صانعي السياسات في الساحة الدولية، والتي تُفسَّر على أساسها كثيرٌ من الأحداث التي تجري في هذه المرحلة من التاريخ، وتُفهم كثيرٌ من المواقف المتعصبة المتحيزة

غير الملتزمة بالقانون الدولي.

وتقتضي الأمانة العلمية والنزاهة الموضوعية في هذا السياق، أن نشير باختصار شديد، إلى ردود الفعل التي أحدثتها أقوال نيافة البابا بينيدكت السادس عشر، الواردة في محاضرته بجامعة ريغينسبورغ الألمانية، يوم ١٢ سبتمبر، حول موضوع العقل في الإسلام، أو العقل والقرآن، أو العقل في الحضارة الإسلامية.

إن ما ورد في محاضرته تلك بخصوص الإسلام ورسوله الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، يخالف حقائق التاريخ. وقد أصيب العالم الإسلامي بصدمة شديدة من جراء هذه الأقوال غير الصحيحة، على الرغم من أن صفوة من المفكرين والأكاديميين، قد ردّوا عليها بنزاهة وحكمة وفندوها، في إطار احترام المكانة الدينية والعلمية والأكاديمية لصاحبها.

والواقع أن ما ورد في محاضرة نيافة البابا، يرد كثيراً في الكتابات الغربية منذ أن ظهرت الطباعة وإلى اليوم. ولكن ما أثار الضجة الهائلة أن الأمر يتعلق هذه المرة بشخصية ذات اعتبار عظيم ومكانة سامية. وإننا كنا في العالم الإسلامي نتطلع إلى مبادرات عملية لإثبات حسن الظن، ولوضع حدّ لازدراء الإسلام، بل لازدراء الأديان السماوية عموماً، وللتطاول على مقدسات المؤمنين في سائر أنحاء العالم.

رؤية غربية مستنيرة:

إنَّ شعوب العالم الإسلامي تتطلع نحو المستقبل، لبناء علاقات إنسانية جديدة على أساس المبادئ الدينية السماوية، والمثل الإنسانية السامية، وما انتهت إليه البشرية من قوانين تحكم علاقات الدول والشعوب بعضها ببعض. ولكن ظواهر الأمور في هذا العالم، تؤكد أن الغرب - والمقصود هنا الدول الكبرى المتحكمة في زمام السياسة الدولية - يسير في الاتجاه المعاكس.

تقول الباحثة (سوزان نيكول) مساعدة المؤرخ اليهودي الدكتور ألفريد ليلينثال (Dr. Alfred M. Lilienthal) المعادي للصهيونية، في موضوع لها وزعته على الإنترنيت بتاريخ ١٣/ ٧/ ٢٠٠٥ : «الأمريكيون يساعدون بلادهم ضدّ الإرهاب، لو عرفوا الجواب الحقيقي عن السؤال (لماذا يكرهوننا ؟). إنَّ العرب والمسلمين يقولون للغرب باستمرار السبب الحقيقي، إلاّ أن الغرب لا يسمع. يجب علينا الاعتراف بتحيّزنا على امتداد نصف قرن ضد العرب والشعوب المسلمة الأخرى. لقد أوجدنا سببَ عدائهم لنا، فنحن، ولسنا هم، الذين بدأنا صراع الحضارات المريع الذي سنواجهه في الجيل القادم أو أكثر».

هذه رؤية غربية مستنيرة إلى عمق الأشياء. ننقلها على سبيل المثال، أن الغرب ليس كتلة واحدة، فهناك عقلاء يفهمون الأمور على حقيقتها، وحكماء يعملون من أجل السلام والتعايش ، والحوار بين الحضارات والثقافات والأديان.

إنَّ فكرة حوار الحضارات انطلقت من العالم الإسلامي. وقد تبنّت الجمعية العامة للأمم المتحدة الدعوة التي وجهها الرئيس الإيراني السابق السيد محمد خاتمي من فوق منبرها، لتعزيز الحوار بين الحضارات. وكان للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ دورٌ تفخر به، في تفعيل قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بجعل سنة ٢٠٠١ (سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات)، فقد عقدت عدة مؤتمرات وندوات دولية حول هذا الموضوع، بعضها بالتعاون والشراكة مع منظمات دولية وإقليمية، اليونسكو، ومجلس أوروبا، ومؤسسة أناليند الأورو ـ متوسطية للحوار بين الثقافات، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ ألكسو ـ التابعة لجامعة الدول العربية، وغيرها. وأصدر في الإيسيسكو (الكتاب الأبيض حول حوار الحضارات) باللغات الثلاث : العربية

والإنجليزية والفرنسية في طبعتين. وهو الكتاب الذي يضم الوثائق والقرارات والبيانات والإعلانات الخاصة بحوار الحضارات.

ولعلّ من المناسب أن نذكر أن (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) الصادر عن الأمم المتحدة في ديسمبر سنة ١٩٤٨، يعبر تماماً عن المنظور الحضاري الإسلامي، ما عدا المادتين السادسة عشرة والثامنة عشرة منه اللتين لنا عليهما تحفظات.

إنَّ العالم الإسلامي تمثله اليوم (منظمة المؤتمر الإسلامي) التي تضمّ في عضويتها سبعاً وخمسين دولة، إضافة إلى أربع دول أعضاء مراقبين، وهي: جمهورية روسيا الاتحادية، ومملكة التايلاند، وجمهورية إفريقيا الوسطى، والبوسنة والهرسك، إضافة إلى طائفة القبارصة الأتراك المسلمين. وتوجد أكثر من عشر منظمات إسلامية تعمل في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي، منها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو -، والبنك الإسلامي للتنمية.

ولكن لابد من الملاحظة هنا أن أكثر من ثلث المسلمين في العالم الذين يبلغ تعدادهم مليارًا ونصف المليار نسمة، غير ممثلين في دولٍ في منظمة المؤتمر الإسلامي. مثال ذلك المسلمون في الهند، وفي الصين، وفي جنوب إفريقيا، وفي دول الاتحاد الأوروبي، وفي الأمريكتين، وفي غيرها. ولذلك فلا في الإيسيسكو أن نولي عناية مركزة بالجاليات والأقليات المسلمة في سائر أقطار العالم، من حيث تقديم الدعم لمؤسساتها التربوية والتعليمية والثقافية والإسلامية، وتقوية الصلات الثقافية والحضارية بين المجتمعات الإسلامية في هذه الأقطار وبين إخوانهم في الدين في الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي.

ولعلّ من المناسب أن نشير إلى أن الإيسيسكو أشرفت في آخر شهر يونيو ٢٠٠٧، على عقد الاجتماع الخامس لرؤساء المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية

في جنوب شرقي آسيا ومنطقة الباسفيك في سنغافورة.

كما تشرف الإيسيسكو في هذا الوقت، على عقد الاجتماع السادس لرؤساء المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية في دول أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي في سانتياغو. وقد وضعت في الإيسيسكو (إستراتيجية العمل الثقافي في الغرب) التي اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي العاشر المنعقد في ماليزيا في سنة ٢٠٠٣. وهو أعلى سلطة دستورية في منظومة العمل الإسلامي المشترك. وأنشأ في إطار هذه الاستراتيجية (المجلس الأعلى للتربية والثقافة في الغرب) الذي يضطلع بمهامّ التنسيق بين المؤسسات التربوية والثقافية الإسلامية في الأقطار التي توجد بها جاليات وأقليات مسلمة.

ولابد من الإشارة إلى أن مصطلح (العالم الإسلامي) هو من وضع الغرب أصلاً. ذلك أن المستشرقين هم الذين نحتوا هذا المصطلح. وقد صدرت مجلة بهذا الاسم (THE MUSLIM WORLD) باللغة الإنجليزية في ١٩١١. ولكن هذا المصطلح ينطوي الآن على مضمون يتجاوز الرقعة الجغرافية التقليدية، والتي تشمل البلدان الإسلامية، إلى المسلمين عامة حيثما وجدوا. ولذلك فإن المسلمين في أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي - مثلاً - هم جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، بهذا المفهوم الحضاري الثقافي، لا بالمفهوم السياسي والجغرافي. فالمسلمون أينما كانوا، هم حملة رسالة الحضارة الإسلامية، ودعاة سلام وتعايش وتفاهم بين الشعوب والحضارات والأديان.

كتلة إسلامية حضارية:

هذه الكتلة الإسلامية الحضارية هي قوةٌ للسلام وللأمن في العالم، ومصدر إشعاع ثقافي إلى مختلف الآفاق، وعنصر دفع لجهود المجتمع الدولي من أجل تعزيز

قيم التعايش والتفاهم والحوار بين الثقافات والحضارات والأديان.

وإذا كانت صورة العالم الإسلامي اليوم في الغرب يشوبها كثير من الظلال، ربما بسبب ما ترتكبه فئة قليلة معزولة متطرفة من أبناء المسلمين، من جرائم إرهابية هنا وهناك، ندينها بشدة ونرفضها، لأنها تخالف تعاليم الإسلام، فإن ما يجب الإشارة إليه في هذا المقام، هو أن دولاً كثيرة من العالم الإسلامي مستهدفة بهذه الجرائم في المقام الأول وضحية لها. ولذلك فإن الرأي العام الإسلامي يقف ضد التطرف بكل أنواعه، ويرفض الإرهاب بجميع أشكاله رفضاً قاطعاً، لأنه يسيء إساءة بالغة إلى الإسلام والمسلمين أولاً وقبل كل شيء. وفي القرآن الكريم تقول الآية ٣٢ من السورة الخامسة (المائدة) : ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. فهذه الآية القرآنية تعبّر أصدق التعبير وأقواه وأبلغه، عن الرؤية الإسلامية إلى الإرهاب أيًا كان، وعن الموقف الإسلامي الثابت من مرتكبي الإرهاب مهما تكن دوافعهم وأهدافهم. فهؤلاء المرتكبون للجرائم الإرهابية، قَتَلَةٌ لا يمثلون إلاّ أنفسهم. ولذلك فليس من الإنصاف ولا من العدل في شيء، أن يؤخذ المسلمون عموماً بجريرة هذه الفئة المنحرفة عن جادة الإسلام والخارجة على القانون.

العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب على أساس المصالح المشتركة:

إنَّ العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب يجب أن تقوم على أساس المصالح المشتركة، والالتزام بقواعد القانون الدولي، وخدمة قضايا الإنسان في كل مكان. وإن الأحداث التي تقع في البلدان الإسلامية والتطورات المتأزمة التي تشهدها مناطق إسلامية عديدة، تدعونا جميعاً إلى تضافر الجهود للتغلب على الأزمات وتسويتها، وفي المقدمة منها أزمة الشعب الفلسطيني ، التي تعدّ بكل المقاييس أخطر

تحدّ يواجه هذه العلاقات.

إن آفاق المستقبل تنفتح أمام العالم الإسلامي الذي يغالب مشاكله المتراكمة الناتجة عن سياسات استعمارية قديمة وجديدة، ويعمل على تحسين أوضاعه، ويواجه التحديات الحضارية التي يتفاقم خطرها كلما أمعن قادة القوى العظمى في الغرب، في ممارسة سياسة الضغط والسعي من أجل فرض نمطٍ حضاري واحد على حساب الخصوصيات الثقافية والحضارية للشعوب.

وأننا جميعاً، سواء في العالم الإسلامي، أو في أمريكا اللاتينية، نواجه هذا التحديَّ الحضاريَّ القاهر لإرادة الشعوب في الحرية والتنمية والتقدم والحفاظ على الخصوصيات. ولذلك لابد من تعزيز علاقات التعاون بين شعوب أمريكا اللاتينية التي نحمل لها كلَّ التقدير والاحترام، وبين شعوب العالم الإسلامي، وبينها وبين بقية شعوب العالم. فتلك هي السبيل إلى بناء المستقبل الإنساني الآمن.

المستشرقون والعداء للاسلام

١. (أ.ج. أربري) انجليزي معروف بالتعصب ضد الإسلام والمسلمين ومن محرري «دائرة المعارف الإسلامية».

٢. (الفرد جيوم) انجليزي معاصر، اشتهر بالتعصب ضد الإسلام. حاضر في جامعات إنجلترا وأمريكا. وتغلب على كتابته وآرائه الروح التنصيرية. ومن المؤسف أنه تخرج عليه كثير ممن أرسلتهم الحكومة المصرية في بعثات رسمية للخارج لدراسة اللغات الشرقية.

٣. (بارون كارا دي فو) فرنسي متعصب جداً ضد الإسلام والمسلمين. ساهم بنصيب بارز في تحرير «دائرة المعارف الإسلامية».

٤. (د. أ. ر. جب) أكبر مستشرقي إنجلترا المعاصرين كان عضوًا بالمجمع

اللغوي في مصر ، والآن أستاذ الدراسات الإسلامية والعربية في جامعة هارفرد الأمريكية. من كبار محرري وناشري «دائرة المعارف الإسلامية». له كتابات كثيرة فيها عمق وخطورة وهذا هو سر خطورته.

٥. (جولد زيهر) مجري، عرف بعدائه للإسلام وبخطورة كتاباته عنه، ومن محرري «دائرة المعارف الإسلامية».

٦. (جون ماينارد) أمريكي متعصب كان يساهم في تحرير «مجلة جمعية الدراسات الشرقية» الأمريكية، وخاصة باب الكتاب الجديدة التي لها صلة بالإسلام وبالشرق على العموم.

٧. (صمويل زويمر) مستشرق منصر، اشتهر بعدائه الشديد للإسلام، مؤسس مجلة «العالم الإسلامي». الأمريكية التنصيرية، مؤلف كتاب «الإسلام تحد لعقيدة» صدر في سنة (١٩٠٨م) وناشر كتاب «الإسلام» وهو مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التنصيري في سنة (١٩١١م) بلكنهو بالهند، وتقديرا لجهوده التنصيرية أنشأ الأمريكيون وقفا باسمه على دراسة اللاهوت وإعداد المنصرين.

٨. عزيز عطية سوريال: مصري نصراني كان أستاذًا بجامعة الإسكندرية والآن يدرس بإحدى جامعات أمريكا، شديد الحقد على الإسلام والمسلمين وكثير التحريف للتعاليم الإسلامية.

٩. (غ. فون جرونباوم) من أصل ألماني يهودي مستورد إلى أمريكا للتدريس بجامعاتها وكان أستاذًا بجامعة (شيكاغو)، من ألد أعداء الإسلام. في جميع كتاباته تخبط واعتداء على القيم الإسلامية والمسلمين، كثير الكتابة وله معجبون من المستشرقين.

١٠. (فيليب حتى Ph.Hitti) لبناني نصراني تأمرك، كان أستاذًا بقسم

obeikan.com

الدراسات الشرقية بجامعة برنستون بأمريكا ثم رئيساً لهذا القسم، وهو الآن بالمعاش. من ألد أعداء الإسلام، ويتظاهر بالدفاع عن القضايا العربية في أمريكا، وهو مستشار غير رسمي لوزارة الخارجية الأمريكية في شئون الشرق الأوسط، يحاول دائماً انتقاص دور الإسلام في بناء الثقافة الإنسانية ويكره أن ينسب للمسلمين أي فضل.

١١. (أ. ج. فينسينك) عدو لدود للإسلام ونبيه، كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري ثم أخرج منه على أثر أزمة أثارها الدكتور الطبيب حسين الهواري مؤلف كتاب «المستشرقون والإسلام» صدر في سنة ١٩٣٦م، وحدث ذلك بعد أن نشر (فينسينك) رأيه في القرآن والرسول مدعياً أن الرسول ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته.

١٢. (كينيت كراج) أمريكي شديد التعصب ضد الإسلام. قام بالتدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة لفترة من الوقت ثم رأس تحرير مجلة «العالم الإسلامي» الأمريكية التنصيرية ورئيس قسم اللاهوت النصراني في (هارتفورد) ومتعهد منصرين.

١٣. (لويس ماسينيون) أكبر مستشرقي فرنسا المعاصرين، ومستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شئون شمال إفريقيا، والراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر. كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري والمجمع العلمي العربي في دمشق، متخصص في الفلسفة والتصوف الإسلامي

١٤. (د. ب. ماكدونالد) أمريكي من أشد المتعصبين ضد الإسلام والمسلمين، يصدر في كتاباته عن روح تبشيرية متأصلة. من كبار محرري «دائرة المعارف الإسلامية»

١٥. مجيد قدوري: نصراني عراقي. رئيس قسم دراسات الشرق الأوسط

بجامعة جون هوبكنز في واشنطن، ومدير معهد الشرق الأوسط للأبحاث والتربية بواشنطن، متعصب حقود على الإسلام وأبنائه.

١٦. (د. س. مرجوليوث) انجليزي متعصب ضد الإسلام ومن محرري «دائرة المعارف الإسلامية»، كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري، والمجمع العلمي في دمشق.

١٧. (ر. أ. نيكولسون) كان من أكبر مستشرقي إنجلترا المعاصرين، ومن محرري «دائرة المعارف». تخصص في التصوف الإسلامي والفلسفة وكان عضواً بالمجمع اللغوي المصري. وهو من المنكرين على الإسلام أنه دين روحي ويصفه بالمادية وعدم السمو الإنساني.

١٨. (هارفلي هول) رئيس تحرير «مجلة الشرق الأوسط» الأمريكية، وخطورته أنه يوجه سياسة مجلة من أهم المجلات المعنية بشئون الشرق الأوسط السياسة والثقافية في العصر الحديث.

١٩. (هنري لانس اليسوعي) فرنسي، من محرري «دائرة المعارف الإسلامية»، شديد التعصب ضد الإسلام والحقد عليه، مفرط في عدائه وافتراءاته لدرجة أقلقت بعض المستشرقين أنفسهم «الطائف»

٢٠. (يوسف شاخت). ألماني متعصب ضد الإسلام والمسلمين له كتب كثيرة عن الفقه الإسلامي وأصوله. من محرري دائرة المعارف الإسلامية ودائرة معارف العلوم الاجتماعية. وأشهر كتبه: «أصول الفقه الإسلامي».

ومن أهم موسوعاتهم وكتبهم ومجلاتهم الخطيرة ما يلي:

أولا:

أ- دائرة المعارف الإسلامية. صدرت بعدة لغات حية، يعاد طبعها بين حين وآخر.

ب- موجز دائرة المعارف الإسلامية.

ج- دائرة معارف الدين والأخلاق. (المقالات المتعلقة بموضوعات إسلامية).

د- دائرة معارف العلوم الاجتماعية. (الموضوعات المتصلة بالإسلام والعرب)

هـ- دراسة في التاريخ. (القسم المتصل بالإسلام ورسوله) من تأليف (أرنولد توينبي).

ثانيا: الكتب:

أ- حياة محمد. تأليف (سيروليام موير).

ب- الإسلام. تأليف (الفرد جيوم).

ج- تاريخ (شارل) الكبير. تأليف القس (تبرين).

د- الإسلام تحد لعقيدة. ظهر بالإنجليزية من تأليف المنصر (صمويل زويمر).

هـ- دعوة المئذنة. ظهر بالإنجليزية من تأليف (كينت كراج)، وتاريخ العرب. ظهر بالإنجليزية والعربية، وطبع عدة طبعات من تأليف النصراني (فيليب حتى)، وهذا المؤلف ملئ بالطعن في الإسلام والسخرية من نبيه، وكله حقد وكراهية.

أ- طريق الإسلام. ظهر بالإنجليزية ، وترجم إلى العربية من تأليف جماعة المستشرقين، اشترك في تأليفه ونشره (أ. ر. جب).

ب- التطورات المبكرة في الإسلام، وكتاب محمد ومطلع الإسلام. من تأليف (د. س مرجوليوث)، وهناك غيرها كثير وكثير.

ثالثا: أهم المجلات التي يصدرونها:

أ- في عام (١٨٤٢م) أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم «الجمعية الشرقية

obeikan.com

الأمريكية»، وفي العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم، وكذلك فعل المستشرقون في كل من النمسا وإيطاليا، وروسيا.

ب- مجلة شئون الشرق الأوسط. يصدرها المستشرقون الأمريكيون، وكذلك مجلة «الشرق الأوسط» وطابعها على العموم طابع الاستشراق السياسي كذلك.

ج- مجلة «العالم الإسلامي» وهي أخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر والتي أنشأها القس المنصر (صمويل زويمر) في سنة (١٩١١م) وتصدر الآن من (هارتفورد) بأمريكا، ورئيس تحريرها (كنيث كراج)، وطابع هذه المجلة تنصيري سافر.

د- وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة «العالم الإسلامي» في روحها واتجاهها العدائي التنصيري واسمها (Le Monde Musulman) وهناك مجلات أخرى غير ما ذكر.

القسم الثاني: قسم منصف معتدل: وهذا القسم يشمل أولئك النفر الذين اتجهوا إلى المنهج الاستشراقي بدافع حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها، فكرسوا جهودهم في البحث والتمحيص لمعرفة الحقيقة خالصة، وقد وصل بعض هؤلاء إلى الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وأصبح منهم الدعاة للإسلام كما هو الشأن ب «توماس أرنولد»، الذي أنصف المسلمين في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»، وكذلك المستشرق الفرنسي «ناصر الدين دينيه» الذي أسلم وعاش في الجزائر وله كتاب «أشعة خاصة بنور الإسلام» مات في فرنسا، ولكنه دفن بالجزائر، وليس بغائب عن الأذهان النمساوي (ليوبولدفايس) الذي اعتنق الإسلام وغير اسمه إلى (محمد أسد) ليصبح بعد ذلك داعية من دعاة الإسلام والمدافعين عنه، وله من المؤلفات في ذلك «الإسلام على مفترق الطرق»، ونظرًا

لإنصاف هؤلاء أو إسلامهم فهم أقل من غيرهم خطأ وخطراً على الإسلام؛ لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف في الدين الإسلامي ومصادره. على أن هؤلاء لايوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص؛ لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى، لا تلقى رواجاً، لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولاعند عامة الباحثين، ومن ثم فهي لاتدر عليهم ربحاً ولا مالاً؛ ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين.

ومن هؤلاء الفئة من المستشرقين:

أ- (هارديان ريلاند ت ١٧١٨م) : أستاذ اللغات الشرقية في جامعة (أوترشت) بهولندا، له «الديانة المحمدية» في جزءين باللغة اللاتينية؛ لكن الكنيسة في أوروبا وضعت كتابه في قائمة الكتب المحرم تداولها .

ب- (يوهان .ح . رايسكه ١٧١٦ - ١٧٧٤م) : أول مستشرق ألماني جدير بالذكر، اتهم بالزندقة لموقفه الإيجابي من الإسلام، عاش بائساً ومات مسلولاً، وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية بألمانيا .

ج- (غوستاف لوبون) : مستشرق وفيلسوف مادي، لا يؤمن بالأديان مطلقاً، جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلامية؛ مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره .

د- (زيجريد هونكه) : اتسمت كتاباتها بالإنصاف وذلك بإبرازها تأثير الحضارة العربية على الغرب في مؤلفها الشهير «شمس العرب تسطع على الغرب » .

ومن هؤلاء أيضاً : سلفستر دي ساسي (١٨٣٨م)، جاك بيرك، أنا ماري شمل، وكارلايل، ورينيه جينو، والدكتور جرينيه، وجوته الألماني، وغيرهم .

آثار المستشرقين:

بالنظر إلى مؤلفات المستشرقين يمكن أن نؤكد مدى حقد هؤلاء الفئة من الناس - عدا القليل المنصف منهم - على الإسلام وأهله، وكراهيتهم لهذا الدين؛ بل وهجومهم عليه ومحاولة دحضه ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] ويرى بعض الكتاب المعاصرين أن حال هؤلاء الصنف من المستشرقين قد شهد نقلة نوعية في ميدان دراستهم؛ حيث كانت الكتابات الأوروبية المبكرة متأثرة بالدين النصراني إلى حد كبير، وكانت المحاولات الأولى تهدف إلى تقويض الإسلام كدين من خلال تشويه تعاليمه الأساسية، وترويج الأساطير والخرافات عن القرآن والرسول بأسوأ شكل ممكن؛ ولكنها الآن أخذت طابعاً آخر. فبدلاً من تقويض المعتقدات الإسلامية، التي ثبت أنها الإسلامي كقوة اجتماعية سياسية. ففي سنة (١٩٩٥م) أعد (روجر هاردي) برنامجاً إذاعياً في سبع حلقات بعنوان«الإسلام : الإيمان والقوة» ضمن عدة لقاءات مع رموز الحركة الإسلامية في أكثر من بلد منها: السودان وتركيا ومصر ومنطقة الخليج والشام إضافة إلى فرنسا وأمريكا. وفي هذا البرنامج الذي أذاعته ال (BBC) بأكثر من لغة، أشار (هاردي) إلى أن الكثير من السياسيين لا يملك سوى خبرة بسيطة بالقوى الاجتماعية والثقافية التي تصوغ الشرق الأوسط، فزياراتهم الرسمية إلى المنطقة تقتصر في الغالب على الالتقاء بالنخبة الحاكمة، ورجال الأعمال، وجماعات الضغط ؛ لذلك لايحصلون على فرصة للتعرف على الإسلام، والفكر الإسلامي، وحقيقة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية من خلال الالتقاء الشخصي برموز الإسلام ومفكريه وعلمائه، وبدلاً من ذلك فهم يتعرفون على أفكار التيار الإسلامي من خلال المصادر التالية وبخاصة أمريكا.

أ- الصحافة الأمريكية .

ب- الدراسات الأكاديمية : وكان من حرص الولايات المتحدة على خبرات هؤلاء الأكاديميين أن استقدمت المستشرق الأمريكي (هاملتون جب) ليرأس قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة (هارفرد) المشهورة وليواصل كتاباته وبحوثه في شؤون العالم الإسلامي .

ج- التقارير السياسية وتقارير المخابرات الأمريكية التي تقدم لحكومة الولايات المتحدة، أو مايجري في أروقة البيت الأبيض من نقاش حول قضايا العالم الإسلامي تنال فيه الصحوة الإسلامية نصيب الأسد. ومن هنا يكون حكمهم على الإسلام والإسلاميين حكماً غير منطقي إذا هم أرادوا النصف، وأما ماداموا متمسكين بعدائهم فلا فائدة إذن من معرفتهم للإسلام الحق عن طريق أهله.

وعلى الرغم من التشابه في كثير من الحالات بين أوروبا وأمريكا في نظرتهم للمسلمين فإن السياسة الأوروبية في الشرق الأوسط تختلف نوعاً ما عن السياسة الأمريكية مع وجود المصلحة المشتركة بين الطرفين وهي أمن «إسرائيل» ومصادر البترول في الخليج، ففي كلمة ألقاها رئيس الوزراء البريطاني (جون ميجر) في مجلس الشرق الأوسط البريطاني ألمح إلى موقف بلاده من عملية السلام، ومن العدو الذي يهدد هذه العملية، ويقصد التيارات الإسلامية قائلاً: «الإرهاب عدونا جميعاً؛ لأنه موجه ضد أولئك الذين يبحثون عن السلام والتقدم في الشرق الأوسط. فالإرهاب هو مهمة الذين يرفضون الالتزام بالقوانين وبمبادئ المجتمع المتحضر، فلا بد إذن من أن نلاحق هؤلاء الإرهابيين ونقدمهم إلى العدالة فليس من المقبول على أي دولة أن تتسامح - فضلاً عن أن تدعم - الإرهاب، كما ينبغي على المجتمع الدولي أن يتحد للوقوف في وجه الدول المساندة للإرهاب» .

obeikan.com

يبدو أن هناك رأيين متباينين لهذه النظرة، فمساعد وزير الخارجية الأمريكي السابق لشؤون الجنوب والشرق الأدنى (إدوارد جريجيان) يرى في كلمة ألقاها في يونيو (١٩٩٢م) أن الإدارة الأمريكية لاتنظر إلى الإسلام على أنه الخطر القادم؛ حيث يقول: «حكومة الولايات المتحدة لا تنظر إلى الإسلام على أنه العدو الإيديولوجي الجديد للغرب أو على أنه يهدد السلام العالمي، ويصف نظرية القائلين بعكس ذلك مثل (لويس هانتنتون) على أنها موقف سطحي من واقع معقد مضيفاً بأن الحرب الباردة لم تستبدل بسباق جديد بين الإسلام والغرب». ولكن من الصعب رؤية ذلك منعكساً بشكل واقعي على السياسة الأمريكية في تعاملها مع المسلمين، فهناك تيارات ضمن دائرة صناع القرار في السياسة الأمريكية ترى أن الإسلام هو بالضبط التهديد الجديد؛ ولكن لأسباب سياسية لايستطيع هذا التيار أن يفصح عن رأيه مباشرة وصراحة كما فعل (جريجيان)، إلا أنها تأتي ضمنياً. وقد تعلن بوضوح كما فعل وزير الخارجية الأمريكي سابقاً (فريد أيكل) حيث ألقى كلمة أمام لجنة الاستماع بالكونجرس الأمريكي في مايو (١٩٨٥م) - أي قبل سقوط العدو الرئيسي - الاتحاد السوفيتي - أشار (أيكل) إلى مصدرين للإرهاب هما: الشيوعية وأشكال من الأصولية الإسلامية؛ ولذلك نجد الولايات المتحدة تسعى لمجابهة الإسلاميين «الأصوليين كما يسميهم الغرب» من خلال مساندة الأنظمة العلمانية للقضاء على هذه الظاهرة التي تهدد مصالح أمريكا، وتهدد أمن إسرائيل أو من خلال أي منظمة أو طرق أخرى تساعدهم في تحقيق أهدافهم.

سيبقى الإسلام مصدر قلقا للغرب طالما هناك ظلم واستبداد ومحاولة إلغاء هويته. وإن الذين يجادلون اليوم بأن النزحة الإسلامية أو الإسلام السياسي هو أكبر تهديد للحضارة الغربية.

إذا كانت حالة التدافع الحضاري قد أوصلت الحضارة الغربية المعاصرة إلى درجة من التفوق المادي والعلمي والإداري فإن تداعيات هذا الصعود الحضاري علينا كأمة مسلمة تجاوزت بكثير النتائج المتوقعة عادة من صعود حضارة ما ربما لأن الحضارة الغربية في هذا الطور من أطوار نموها أشاعت أن هذا هو الطور النهائي من تطور الحياة على الأرض وأن التاريخ قد انتهى عند هذا الحد ..انتهى بإعلان تفوق الحضارة الغربية وإعلان أن قيمها هي القيم المثالية في حياة البشرية وعليه فعلى جميع شعوب الأرض أن تتبنى هذه القيم بحيث تقاس درجة نجاحها وتطورها بمدى سيادة هذه القيم التي تم اعتبارها الخير الأسمى الذي بحث عنه الفلاسفة القدامى طويلا.

ومن جهة أخرى أوجد هذا التفوق الغربي الكاسح حاجة ماسة لدى طلائع النهضة من أبناء حضارتنا المستمسكين بأصالتها وقيمها الرفيعة لمحاولة فهم وتفكيك العقل الغربي كخطوة أولى وأساسية للتعاطي مع واقع الهيمنة الحضارية الغربية فكثرت الدراسات والبحوث التي تحاول الغوص داخل العقل الغربي الحديث لترى الجذور الوثنية وقد تلبست بتعصب ديني بشع وامتزجا معا في دين عجيب سرى في دماء الحضارة الغربية الحديثة حتى لو أنكرته وتبرأت منه .

والأقرب إلى الحقيقة أن الفلسفة الغربية الحديثة التي قامت عليها الحضارة الغربية لم تستطع أن تحسم صراع الفلسفات لصالحها فظلت الأفكار والفلسفات القديمة الأكثر تعصبا هي منظومة الأفكار السائدة غربيا والمتحكمة في مواقفه وتعاملاته لاسيما فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين ولنأخذ موقف الغرب من الحجاب نموذجا لصراع الفلسفات هذه.

لاشك أن المتأمل لموقف الغرب من الحجاب سيجد مواقف متباينة متنوعة فبينما

يتحدث أوباما عن حرية المرأة المسلمة في ارتداء الحجاب حتى أنه اختار مستشارة محجبة وضمها لفريق مستشاريه في البيت الأبيض وهو يتحدث عن الحجاب بصورة تشي بالتقدير والاحترام يقول أوباما : إن الحكومة الأمريكية تقوم بإجراءات المقاضاة من أجل صيانة حق النساء والفتيات في ارتداء الحجاب ومعاقبة من يتجرأ على حرمانهن من ذلك الحق. في الوقت الذي يشن فيه الرئيس الفرنسي ساركوزي حربا على النقاب باعتبار أن المنتقبات غير مرحب بهن على أراضي الجمهورية الفرنسية. بل إنه وعندما كان وزيرا للداخلية تم تدشين قانون يمنع الفتيات المسلمات من ارتداء الحجاب داخل المدارس الحكومية الفرنسية.

كذلك فقد مثل الألماني الذي قتل المصرية المحجبة مروة الشربيني داخل قاعة المحكمة نموذجا لقطاع من المواطنين الغربيين خارج نطاق مؤسسات الحكم وصناع القرار الذين يرفضون الإسلام ويرون في ارتداء المسلمة للحجاب نموذجا حيا للإسلام ويضيقون ذرعا بالقيم التي جاء بها الإسلام ويمثلها ارتداء الحجاب على الرغم من أن العديد من المؤسسات والقطاعات قد أدانت سلوك هذا المجرم الألماني ونددوا بقيم التعصب وضيق الأفق.

لا يمكن إذن تفسير المواقف الغربية المتناقضة إزاء قضية الحجاب إلا بتعدد الفلسفات الحاكمة في الغرب وأنه ثمة صراع بين هذه الفلسفات يتحدد في محصلتها النهائية موقف الغرب من الإسلام وشرائعه وقيمه وممثليه.

فالمدرسة الأمريكية يغلب عليها الطابع البرجماتي الذي يقول عنه رائد المذهب وليم جيمس (إنه اتجاه تحويل النظر بعيدا عن الأشياء الأولية المبادئ، النواميس، الفئات، الحتميات المسلم بها، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة الثمرات، النتائج، الآثار الوقائع، الحقائق) فإذا كان احترام الحجاب سيرفع من أسهم

الولايات المتحدة ويحسن صورتها أمام المسلمين فلا بأس من احترامه ومنح الحرية لمن تشاء أن ترتديه لأنه في المقابل ستحصل الولايات المتحدة على الصفقات المربحة الثمينة والنفط والمواد الخام التي تحتاجها من الدول الإسلامية التي اكتسبت ثقتها وعلى مستوى الدخل الأمريكي يحدث لون من الاستقرار في المجتمع ويندمج المسلمون بصورة ناعمة في المجتمع الأمريكي والقيم الأمريكية الخاصة أي القيم النفعية البرجماتية التي لا تعول على أي مبدأ إلا بقدر نفعه ويأمل أصحاب هذا الفكر من تحقيق معادلة الإسلام البرجماتي.

أما المدرسة الغربية الأخرى التي تقودها فرنسا فهي تمثل إشكالية حقيقة ، فكثير من المعنيين بدراسة أحوال الجالية المسلمة في فرنسا لا يجدون تفسيرا مقنعا لموقف فرنسا من الحجاب والقمع الذي تلاقيه المحجبات على أراضي الجمهورية العلمانية ، فالصورة الشائعة عن فرنسا في أدبياتنا والتي روجها عدد من مثقفينا العلمانيين أن فرنسا هي بلد الحرية على أرضها أشرق عصر الأنوار الذي أخرج الناس من ظلمات العصور الوسطى وأن فلاسفتها العظام هم الذين أعادوا الاعتبار للعقل ولمركزية الإنسان في الكون ورفعوا لواء الحرية والتمرد على أي قيد يحد من حرية الإرادة الإنسانية و..و..فماذا حدث وكيف تقيم الجمهورية العلمانية محاكم التفتيش للمحجبات على هذا النحو ؟

لابد أن نذكر في هذا الصدد أمرين قد يصلحان كتفسير لتلك الإشكالية ..

الأمر الأول : أنه على الرغم من أن العلمانية الفرنسية قد قامت على أنقاض الدين إلا أن القيم الثقافية الحاكمة لا تزال غنية بالنكهة الدينية المشوهة فميراث الحروب الصليبية التي شاركت فيها أوروبا جميعا وكان لفرنسا فيها نصيب الأسد أصبح أحد مكونات الجينوم الغربي إن جاز التعبير يقول المفكر الغربي المهتدي محمد

أسد:(قد يبدو من سخرية التاريخ أن يظل هذا الحقد الغربي القديم على الإسلام قائما بطريقة لا شعورية في زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من تأثيره في مخيلة الغربي بيد أن هذا في الحق لا يبعث على الدهشة فنحن نعرف أن شخصا ما يمكنه أن يفقد بالكلية المعتقدات الدينية التي لقنها في طفولته ومع ذلك فإن انفعالا معينا ذا صلة بتلك المعتقدات أصلا يستمر دونما وعي في حال العمل إبان حياته فيما بعد . إن خيال الحروب الصليبية لا يزال يرفرف فوق الغرب حتى يومنا هذا كما أن جميع اتجاهاته وتوجهاته نحو الإسلام والعالم الإسلامي لا تزال تحمل آثارا واضحة جلية من ذلك الشبح العتيد الخالد).

أما الأمر الثاني: فيتعلق لا بالموقف من الإسلام عموما ، ولكن بالموقف من الحجاب خصوصا ، فهم لا يشنون الهجوم على الصلاة والصيام ونحو ذلك من العبادات وإنما يخصون زي المرأة المسلمة تحديدا ، وأن هناك حالة من الهلع تسود الأوساط العلمانية من جراء انتشار الحجاب ، فالحجاب في مضمونه قيمة حضارية مباينة تماما لمنظومة القيم الغربية السائدة والتي يراد لها أن تكون قيما عالمية ، فشتان بين فلسفة تقوم على الستر والاحتشام ، وغض البصر، وعدم الخضوع بالقول ، والتحفظ في العلاقات بين الجنسين وفلسفة أخرى تنادي بالحرية الجنسية التي تصل إلى حد الثورة ، وتدعو المرأة إلى التمتع بحرية جسدها ، وتتفنن مدن آمنت بهذه الفلسفة في صناعة الملابس المثيرة التي تسوقها على مستوى العالم كله باعتبارها النموذج الأكثر جمالا وأناقة.

هناك وقع التصادم الحتمي بين الدعوة للحرية والتي كانت أحد تجلياتها حرية المرأة في انتقاء ملبسها مهما كان متبرجا ، وبين القدرة على تحمل قيم مخالفة تفرز صورا من اللباس المختلف ، لكنه تصادم نستطيع منه استشفاف رائحة الخوف

والتمترس حول قيم الحرية الزائفة والمرجعية العلمانية السائدة فالخوف من تآكل الصورة النمطية للمرأة الغربية وما يستتبع ذلك من انهيار المشروع القيمي العلماني هو دافع أساسي للسلوك العدواني إزاء الحجاب والمحجبات.

كان قوم لوط من الشواذ، يمارسون الفحشاء مع أمثالهم من الرجال ، وعدوا الشذوذ هو الأصل، والطهارة هى الاستثناء، ولذا حاربوها وحاربوا الداعين إليها، وعلى رأسهم سيدنا لوط عليه السلام ، وكانت تساعدهم فى حربهم ضد الطهارة زوجته التى كانت تنقل أخباره إلى قومه ،وكانت نهاية هؤلاء القوم طبيعية حين انقلبت بهم الأرض فصار عاليها سافلها ، ومعهم زوج لوط ، الذى أنجاه الله ومن آمن به .

Obeikan.com

معاناة المسلمين في فرنسا

وهذه المسوغات بعينها هى ما يرفعه الصليبيون الاستعماريون المتعصبون فى فرنسا ضد المسلمين ، دع قضية الحجاب جانبا ، وانظر إلى مجمل ما يعانيه المسلمون من تمييز عنصرى بشع وكريه فى أرجاء البلاد الفرنسية ،مع أنهم يمثلون القوة الثانية بعد الكاثوليك ،ويبلغ عددهم أكثر من خمسة ملايين مسلم ،منهم ثلاثة ملايين يحملون الجنسية الفرنسية ،والباقى من المقيمين الذين قضوا فترات طويلة هناك فلا يوجد وزير مسلم واحد فى فرنسا ،ولا يوجد مسئولون مسلمون فى الإدارات الفرنسية حتى المستويات الدنيا ..والمسلمون يسكنون غالبا فى الأحياء الفقيرة ، ويعيشون مستوى اقتصاديا أقل من اليهود والكاثوليك ..ومع ذلك فهم يخدمون الدولة الفرنسية بإخلاص ، ويعطونها جهدهم وعمرهم ، ويأبى عليهم المتعصبون أن يكون لهم وجود إنسانى أو كيان محترم ..بل يريدونهم عبيدا بلا دين ولا عقيدة ولا ثقافة ولا هوية !.

إن فرنسا تمتلئ بالنساء العاريات والداعرات والمدمنين والشواذ والإباحيين ، ولكن ذلك لا يشغلها ولا يمثل لها مشكلة خطيرة ، فقط يشغلها إستراتيجيا وقوميًّا حجاب المرأة الفرنسية المسلمة الذى يعلن من وجهة نظرها عن هوية صاحبتها الإسلامية ..صار الحجاب علامة وشارة لدى فرنسا المتعصبة الظلامية ،وليس جزءا من العقيدة الإسلامية التى تلزم المرأة بالطهارة والعفة والنقاء ..ويجب التخلص من هذه الشارة وتلك العلامة ؛لأن ذلك يخل بالمعادلة العلمانية ، ويقضى على النظام الجمهورى ؟!.

ولا ريب أن المشابهة قائمة بين قوم لوط فى منطقهم المعوج ضد المتطهرين ، والمتعصبين الفرنسيين ضد الحجاب ،وكلا الطرفين يملك عقلا وبصرا وعلما وفقها ، ولكن الشذوذ والتعصب ضربا بظلامها على الجميع ،وإذا كان قوم لوط قد نالوا جزاءهم قديما ،فلا أظن المتعصبين الفرنسيين سيفلتون من العقاب الإلهى قريبا أو بعيدا.. وصدق الله إذ يقول ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ الكهف ، فالظلم هو سبب الهلاك ومقدمته فى كل مكان وزمان !.

القضية فى كل الأحوال ليست قضية الحجاب ، وإن كان الحجاب جزءا منها ، إنها قضية الإسلام الذى يكرهه الصليبيون المتعصبون ، ويحاربونه ليل نهار ، ويحققون انتصارات عظيمة (في هذا المضمار) .. .. ومع كل هذه الانتصارات الصليبية الاستعمارية ، فإنهم يخافون الإسلام والمسلمين ،لأن قيمه ضد طموحاتهم الشريرة وغاياتهم العدوانية وسلوكهم الإجرامى ضد الآخر استعمارا ونهبا وإذلالا واستعبادا .

والمفارقة أن الإسلام ينتشر فى عقر دارهم ،وبين أبنائهم الذين يهديهم الله تعالى إلى التعرف عليه وعلى مبادئه وتشريعاته ، وقد كثر القول مؤخرا عن دخول عدد كبير من الأوروبيين والأمريكان إلى الإسلام عقب أحداث سبتمبر (٢٠٠١) الغامضة ،التي اتهم المسلمون بتدبيرها ،حيث تهافت عدد كبير من أهل أوروبا وأمريكا على شراء نسخ القرآن الكريم ومحاولة التعرف على ما فيه وكانت النتيجة إسلام بعضهم ، وتحجب نسائهم المسلمات ،مما أثار ذعرا وقلقا فى دوائر المتعصبين الصليبيين الظلاميين الذين مازالوا يعيشون بمنهج بطرس الحافى !!.

والمسيحية أبعد ما تكون عن الصليبية الاستعمارية ،ولقد اتخذ الاستعماريون الهمج من الصليب شارة وعلامة على المسيحية ،وهم يذبحون ويقتلون المسلمين

والنصارى على السواء(الحملة الصليبية الثالثة توجهت إلى بيزنطة بدلا من القدس ، فأعملت فى أهلها النصارى قتلا وتشريدا ونهبا مما تقشعر له الأبدان).

وهو ما يكرره الصليبيون المعاصرون فى هيستيريا لا تقل خطورة عن الهيستيريا الصليبية القديمة ، حين يرون فى الحجاب ما تدل على تمدد الإسلام داخل المجتمع الصليبى الاستعمارى ،وهو ما يضعه الاستراتيجيون الغربيون تحت دائرة الضوء والتشريح لمعرفة مستقبله وتأثيره على المعادلة الاجتماعية والثقافية والسياسية فى الغرب ،كما يرى بعض الباحثين .إن الإسلام اليوم وهو حاضر المسلمين دائما فى الشارع الأوروبى يجعل الأوروبيين يتساءلون دائما عن الإسلام ، وعن أولئك القوم الذين يتطهرون بالحجاب والعفة والنقاء ولا ينضوون تحت لواء الإباحية أو الإدمان أو الشذوذ ..وهذا ما تراه الحكومات الاستعمارية المتعصبة خطرا على وجودها فى المدى القريب أو البعيد .. ومهما يكن من أمر ،فإن الحملة المسعورة ضد الحجاب لن تزيد المسلمين إلا تمسكا بدينهم وحرصا عليه ودفاعا عنه وانتماء إليه ، والله غالب على أمره.

المرأة المسلمة في الغرب - تعاني بسبب حفاظها على الحجاب

رغم كل الادعاءات في الدول الأوروبية بأنها مرتع خصب لحرية التعبير والأديان إلا أن مظاهر العداء للإسلام تتضح يوما إثر يوم ولاسيما تجاه حجاب المرأة المسلمة، فمن منا لا يذكر قصة الطالبة الجزائرية التي منعت من دخول مدرستها في فرنسا لأنها ترتدي الحجاب في حين يسمح للطلاب اليهود بارتداء قلنسوتهم. وهناك أيضا قصة المدرسة النرويجية التي فصلت من مدرستها بعد أن أشهرت إسلامها وارتدت الحجاب، فسارعت لرفع عدة دعاوى أمام المحاكم دون جدوى بحجة أنها تمثل خطرا على النشء.

مسيرة تأييد!

وفي ألمانيا خرجت تلميذات مسيحيات مع أمهاتهن في مظاهرة احتجاج بولاية سكسونيا السفلى وهن يرتدين حجاب المرأة المسلمة احتجاجا على أمر وزيرة الثقافة في الولاية بالاستغناء عن خدمات معلمة مسلمة ؛ لأنها ترتدي الحجاب لإسلامي.

وذكرت جريدة الدعوة الإسلامية الصادرة بمدينة طرابلس بالجماهيرية العربية الليبية أن المعلمة المعنية كانت قد اعتنقت الإسلام منذ عشر سنوات وتمرست في مجال التدريس ومنحت عددا من شهادات التقدير .

قضية سياسية!!

وأعلن مايزن هولتر النائب السابق لرئيس المحكمة الدستورية العليا وهي أعلى هيئة قانونية في ألمانيا تطوعه لرفع قضية لها واصفا تصرف الوزيرة بأنه خلق من قضية إدارية قضية سياسية. ومن جانب آخر قالت روزا ماري رئيسة إدارة هامبورج التعليمية : إنه لا يوجد لديها أو لدى أي مسؤول في الولاية أي اعتراض على عمل مدرسة دخلت الإسلام منذ ٣ سنوات بالحجاب ؛ لأنه لا يوجد أي نص في القانون الألماني يمنع ذلك.

حجاب المرأة المسلمة في الثقافة الغربية!!

ثمة ظاهرة في العالم الإسلامي بدأت في العقدين الأخيرين تثير انتباه علماء الاجتماع الغربيين، وخاصة أولئك المهتمين بقضايا العالم الإسلامي خصوصًا، أو المهتمين بالظواهر الاجتماعية المختلفة عموماً. وهي ظاهرة عودة الحجاب بكثافة في الوطن العربي، ولاسيما في المجتمعات التي كان للاستعمار تأثير اجتماعي وثقافي كبير فيها.

لقد أخذت هذه الظاهرة تفاجئ زوار المدن العربية في الحزام الشمالي من الوطن العربي: مصر، وسوريا، ولبنان، وتونس، والجزائر، والمغرب. وصارت تمثل لغزاً مبهماً أمام أعين المراقبين الخارجيين، ذلك أن هؤلاء الفتيات هنَّ في متوسط العمر، ومن المنتميات للأجيال الحديثة، فضلاً عن أنهنَّ قطعنَ شوطًا كبيرًا في مضمار التعليم، والأهم أنَّ هؤلاء الفتيات قد تحجبنَ بإرادتهنَّ الحرة، بل وفي كثير من الحالات ضد رغبات آبائهنَّ.

مثار الاستغراب حسب عالم اجتماع غربي هو (LOIS BECK) يعود لكون الحجاب كان لقرون عدة يرمز إلى «اضطهاد» المرأة العربية المسلمة، وإلى المركز «المتدني» الذي كانت تحتله في المجتمع، وفق النظرة الغربية السطحية. عالم اجتماع غربي آخر هو (NIKKI KEDDIE)يَردّ أسباب الاستغراب والإثارة إلى كون ظاهرة الحجاب قد جاءت إلى المجتمع العربي بعد حركة نسائية نشطة شهدتها المنطقة خلال النصف الأول من القرن المنصرم. وكان السفور أثناءها رمزاً لتصميم النساء على «التحرر من الأغلال» . ويضيف (KEDDIE)أنَّ تلك الحركة نجحت فعلاً في صوغ قوانين للأسرة وللأحوال الشخصية في المنطقة.

هذه التساؤلات وغيرها دفعت علماء الاجتماع الغربيين إلى ربط هذه الظاهرة بالحداثة بمفهومها الغربي العلماني، متسائلين إن كانت هذه القضية تمثل نكسة ضد الحداثة. مستندين في ذلك إلى تصنيفات كثيراً ما تكون مقطوعة الصلة بمثل هذه الظواهر، ومختزلين الحداثة بشكل ظاهري سطحي وهو السفور والملابس العصرية والاختلاط الحر مع الجنس الآخر واللقاء «الرومانسي» بين الجنسين.

عالم اجتماع بريطاني هو (جودي مابرو) لخّص النظرة الغربية لظاهرة الحجاب وفق قراءة فيها شيء من الموضوعية في كتابه «تصورات الرحالة الغربيين عن النساء

في الشرق الأوسط».

يقول مابرو: «شكلت النساء المسلمات مؤخراً موضوع نقاش كثيف في الصحافة الغربية، خاصة حين طالبت قلّة قليلة من الفتيات في فرنسا وإنكلترا بحقهن في ارتداء غطاء الرأس في المدرسة. ولقد عكس السجال الطويل الذي دار في فرنسا، والآخر المقتضب الذي دار في إنكلترا، تلك النظرة الغربية المتأصلة التي ترى أنّ السبب الأوحد لاضطهاد النساء المسلمات هو دينهن. إذ إنه ، يضيف مابرو، طالما اعتقدت أوروبا أن النساء المسلمات يعانين من الاضطهاد ما لا تعانيه غيرهن من النساء، فهذا ما وصفته كتب الرحلات الغربية والأدب الغربي. وما صوّره الفن الغربي على مر فترة مديدة من الزمن، لذا فقد أُخذ الأمر على أنه واقعة لا شك فيها، ويمكن للجميع أن يروها متجلية في الحجاب، وفي مؤسسة الحريم. هاتان الظاهرتان لا تزالان تثيران اليوم ردود فعل قوية شأنها في أي وقت مضى. يرى (مابرو) أنّ «الحجاب هو الذي يطلقه الغرب على كل وشاح يغطى به رأس المرأة، وهو تعبير يمكن أن يضلّل ويسوق إلى تعميمات زائفة ومغلوطة، لذا سرعان ما طفت على السطح مجموعة من الأفكار الخاطئة عن الإسلام والنساء المسلمات.

ومن الأمثلة التي يوردها مابرو على ذلك أنَّ مراسلاً لـ (جارديان) قام بتحقيق عن حالة تلميذتين في «أولتر بخشام» ارتدتا غطاء الرأس فطلب مقابلة والدهما لاقتناعه أن الإسلام دين يهيمن فيه الرجال، وأنَّ النساء المسلمات كائنات سلبية لا حول لها ولا قوة. غير أنَّ إحدى الفتاتين قالت له : إنَّ والدها مشغول، وعرضت عليه أن تساعده هي نفسها. ويقول هذا المراسل: من ثم فقد ساعدتني فاطمة طوال ٤٠ دقيقة كاملة، ومع أنها لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها فإنَّ طلاقتها وثقتها بنفسها لو وجدتا في أي شخص في ضعف سنها لكانتا لافتتين للانتباه، فهي سيدة

تعرف نفسها وتعرف ما تريد. (الجارديان ١٩ يناير ١٩٩٠).

مثال آخر يسوقه مابرو، ففي مايو ١٩٨٩ تضمَّن برنامج تلفزيوني عن أفغانستان مقابلة أجراها رجل أيضاً مع بعض الفتيات في جامعة كابول، وحين أعربت الفتيات اللاتي يعشن في مدينة أنهكتها الحرب في رغبتهنَّ الجامحة في السلام، وعن استعدادهنَّ لقبول التسويات إذا ما كانت ضرورية لتحقيقه، أصيب المحاور البريطاني بصدمة. فقد كان واثقاً من أنَّ هؤلاء الصبايا اللاتي ترعرعن في فترة الحكم الشيوعي لا بد أن يجدن مكانة النساء أكثر أهمية من السلام. وحين طرح عليهن السؤال: «أأنتن مستعدات حقاً لارتداء الحجاب؟

أجبنَ جميعاً أنهنَّ مستعدات إذا ما كان لذلك أن يسهم في إحلال السلام في البلاد.

مثال آخر يضيفه مابرو موضحاً الرؤية الغربية لموضوع الحجاب والمرأة المسلمة عموماً. يقول: نشرت مجلة «ماري كلير» ، وهي مجلة للأزياء في بريطانيا مقالاً بعنوان «جزيرة العرب خلف الحجاب» في سبتمبر ١٩٨٨ . يصفه مابرو «بأنه يعزف على وتر افتراضات بالية ورثها عن الرحالة الغربيين بخصوص النساء الشرقيات».

ومن المقال: «غالباً ما تأتي خبرة الغربيين بالحجاب من رؤيتهم زمراً من النساء القصيرات المتسربلات من الرأس إلى أخمص القدمين بنوع من الكتان الأسود الفاحم، وهن يطفنَ على مهل في متاجر المدن الكبرى. ومع أنَّ هؤلاء النساء يبدينَ بمثابة الشيء الشاذ والغريب وهنَّ يركبنَ ويترجلنَ من سيارات الليموزين التي تراها متوقفة بانتظارهنَّ أمام محلات « الماربل آرش لماركس وسبنسر في لندن » إلاَّ أنهنَّ قد يكنَّ في بلادهنَّ ساحرات الجمال وغامضات وفاتنات ومدهشات مثل نجد تلك الصحراء القاحلة في شبه الجزيرة العربية».

يرى مابرو: أنَّ كاتب المقال المذكور لا يُعنى بهؤلاء النساء إلا بوصفهنَّ موضوعات جنسية. كما يرى في مكان آخر أن أسباب وصف الأوروبيين للمرأة المحجبة بالتخلف والبؤس إنما هو نتاج للمركزية العنصرية والإيمان بتفوق العنصر الأوروبي».

وفق هذه الرؤية كثيراً ما يدرس علم الاجتماع الغربي هذه الظاهرة بناء على نظرة سطحية هشة. فضلاً عن كونها، كما أسلفنا، مقطوعة الصلة بظروفها وأبعادها ومضامينها الحقيقية. وهو ما عبر عنه الفكر الغربي في التجمعات العالمية التي نُظمت لدرس قضايا المرأة في العالم، كـ «المؤتمر العالمي للسكان والتنمية» الذي عقد في القاهرة في سبتمبر ١٩٩٤، و«المؤتمر الرابع للمرأة» الذي عقد في بكين سبتمبر ١٩٩٥.

لقد تعامى الفكر الغربي تماماً في هذه المؤتمرات عن حقيقة أنّ النسق الاجتماعي في كل دولة يخلق أوضاعاً خاصة بها تسمح بإباحة حقوق للمرأة قد لا تتناسب مع دول أخرى لها نسق يتفق مع ظروفها، ومن ثم يختلف تناول قضية «تمكين المرأة»، وهو المصطلح الذي يسود حالياً، من مجتمع لآخر بحسب المعايير التي تشجع بها تقاليد كل مجتمع.

وهنا نعود لنتساءل مع عالم الاجتماع المصري «سعد الدين إبراهيم» حول حقيقة هذه الظاهرة ومدى أثرها على تطور المرأة وتخلفها كما تدَّعي تصنيفات علم الاجتماع الغربي. وحسب إبراهيم في كتابه الموسوم «النظام الاجتماعي العربي الجديد»: «أنه إذا كانت الحداثة تعني السفور والملابس العصرية والاختلاط الحر مع الجنس الآخر واللقاء الرومانسي بين الجنسين، ففي هذه الحالة تمثل الفتيات المحجبات نكسة لقضية الحداثة؛ أما إذا كانت الحداثة من ناحية أخرى تعني

obeikan.com

اكتساب العلوم الحديثة والتكنولوجيا والإنسانيات، وإذا كانت تعني أيضاً الالتزام، ففي هذه الحالة تعدّ الفتيات المحجبات حديثات بكل المعاني».

ويصف الدكتور إبراهيم فوائد الحجاب بما يتناسب مع المنطق الغربي الفلسفي فيقول «إنّ هؤلاء الفتيات يؤكدنَ على واحد أو أكثر من المعاني التالية: هوية أصيلة في مواجهة تقليد أساليب الحياة الغربية، اعتراض على ما يبدو أمامهنَّ سلوكاً منحرفاً أو فاسداً في المجتمع، ثم التخفيف من الآثار الباهظة الناجمة عن ارتفاع معدلات التضخم وذلك بتجنب ارتداء الملابس الغالية والحرص على السمعة الأخلاقية .

كما أنّ هؤلاء الفتيات هنّ استجابة معقدة لعالم معقد من حولهنَّ. عالم لا يستطعنَ السيطرة عليه من قريب أو بعيد، ويشمل سيلاً متدفقاً من السلع الاستهلاكية الغالية والتضخم المرتفع، فضلاً عن أساليب الحضارة الغربية.

كذلك فإن هؤلاء الفتيات المحجبات يتعلقنَ بميراث يبدو وكأنه يستعيد إحساسهن بالجدارة ويحميهنَّ من المجهول. إنهنَّ بكل بساطة ينتقينَ من محتويات حقيبة الحداثة، ويأخذنَ من الحداثة ما تحتويه من علم وتكنولوجيا، ومن التزام بمستقبل مهني، ثم يتركنَ بقية هذه المحتويات، يحدوهنَّ شعور وقناعة عميقة بأنَّ ما اخترنه من هذه الحقيبة إنما يتسق مع تراثهنَّ ومع تعاليم الدين الحنيف، ومع الأصالة .

ويختم إبراهيم معلقاً: هذا هو سبيلهنَّ لكي يفرضنَ بعض النظام على عالم يبدو لهنَّ مفعماً بالفوضى والاضطراب.

بقي أن نذكر مثالاً أورده المفكر الإفريقي «فرانز فانون» عن المرأة الجزائرية أيام الاستعمار الفرنسي: «إن حجابها وسفورها كان جزءاً لا يتجزأ من تأكيدها لذاتها القومية والثقافية والحضارية. فعندما شجع الاستعماريون الفرنسيون النساء

الجزائريات على السفور عمدنَ إلى التمسك أكثر بالحجاب كرمز للمقاومة، وعندما تطلبت المقاومة سفور بعض النساء للتسلل داخل صفوف المستعمرين الفرنسيين وزرع المتفجرات في الأحياء السكنية الأجنبية تخلت بعض النساء عن الحجاب» ، ولكن التخلي كان مؤقتا ولمصلحة بغية الجهاد في سبيل الله.

وقفات مع الهجمات الفرنسية على الحجاب

بداية، ومع تأكيد الرفض للقانون الفرنسي الذي يلغي فريضة من فرائض الإسلام، فإن الموضوعية تقتضي إلى أن القانون الفرنسي بحظر ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية جاء متأخرًا عن قوانين مماثلة سبقت فرنسا إليه بلدان عربية ومسلمة، فالردة العلمانية في تركيا بقيادة 'كمال أتاتورك' فرضت على المرأة التركية المسلمة نزع حجابها بقانون صدر في عام ١٩٢٤م، ثم جاء الانقلاب العسكري بقيادة الجنرال «كنعان إيفرن» في عام ١٩٨٠م ليتشدد في تنفيذ هذا القانون، ويضيف إليه قوانين أخرى بعد أن هبت رياح الصحوة الإسلامية على تركيا. ما زلنا نذكر كيف قامت دنيا العلمانيين ولم تقعد، عندما تجرأت نائبة استنابول 'مروة قاوقجي' على دخول البرلمان، وهي ترتدي الحجاب، ولم يكتف العلمانيون بإلغاء عضويتها في البرلمان التركي، وإنما نزعوا عنها جنسيتها التركية.

وفي مصر أصدر وزير التعليم المصري الدكتور «حسين كامل» في عام ١٩٩٤م قرارًا بمنع أية طالبة مسلمة من ارتداء الحجاب، إلا بعد تقديم طلب من ولي أمرها يحال إلى لجنة خاصة أعطاها قرار الوزير الحق في رفض الطلب أو قبوله كما ورد في خبر نشرته «الدستور» في ٢٠/ ٧/ ١٩٩٤م.

وفي تونس يحظر على المرأة المسلمة ارتداء الحجاب في أي مكان خارج بيتها ـ وكأن الحجاب فرض على المرأة في بيتها فقط ـ وتمنع أية متحجبة من العمل في أية

obeikan.com

وظيفة رسمية أو غير رسمية إذا كانت متحجبة، وفي بلدان عربية ومسلمة أخرى تعرضت المتحجبة ولا تزال تتعرض للمضايقات بشكل أو بآخر.

وقفة أخرى: أشد فيها الانتباه إلى دور الأصابع الصهيونية الخبيثة في التحريض ضد الجاليات المسلمة في أوروبا لتشجيع الدول الأوروبية على إصدار مثل هذه القوانين التي تستهدف الجاليات المسلمة في أوروبا، تمامًا مثلما تقف الأصابع الصهيونية وراء الحرب التي تشنها الإدارة الأمريكية المتصهينة ضد كل ما يمت إلى العرب والمسلمين بصلة، وحذار أن تنطلي علينا حيلة وضع القلنسوة اليهودية في زمرة المحظورات، فارتداء القلنسوة ليس فرضًا في الديانة اليهودية كما هو الحجاب في الشريعة الإسلامية، والقانون نفسه الذي حظر على المسلمة ارتداء الحجاب هو نفسه القانون الذي يعتبر معاداة السامية، وإنكار المحرقة المزعومة جريمة يعاقب عليها في فرنسا العلمانية...!

ووقفة ثالثة: إلى أن القانون الفرنسي بمنع المسلمات من ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية لم يكن ابن ساعته، وإنما جاء بعد محاولات عديدة لمنع ارتداء الحجاب سبقت صدوره بسنوات طويلة. ففي بداية العام الدراسي لعام ١٩٨٩م قرر مدير معهد في مدينة «كراي» الفرنسية منع الطالبات المسلمات «ليلى» و«فاطمة»، و«سميرة» من دخول المعهد إلا بعد نزع حجابهن، وانتقلت القضية إلى الصحافة، وكان موقف الحكومة الفرنسية يومذاك غير موقف حكومة شيراك اليوم، فقد انحاز وزير التربية والداخلية لحق الطالبات المسلمات في ارتداء الحجاب، ودعا وزير التربية ليونال جوسبان مديري المدارس والمعاهد الفرنسية إلى عدم إرغام الطالبات المسلمات على خلع الحجاب إذا أصررن على ارتدائه، وأيد وزير الداخلية «بيار جوكس» موقف وزير التربية «جوسبان»، مؤكدًا أن موقف وزير

التربية هو الموقف الصحيح جدًا، لأنه كما قال «جوكس»: يحمي حق الطالبات المسلمات في التعليم، ولأنه يتماشى مع مبادئ التسامح في التعاطي مع الأفكار وليس إلى خيار فرض الرأي بالقوة.

وفي عام ١٩٩٩م نفذ سبعون مدرسًا في معهد جان مونيه في مدينة 'فلير' في غرب فرنسا إضرابًا للتنديد بالسماح للطالبات المسلمات بدخول المعهد بالحجاب، وفي نفس العام أصر ٣٢ مدرسًا في مدرسة بجنوب فرنسا على الامتناع عن التدريس، إلا بعد طرد طالبتين مسلمتين ترتديان الحجاب، فطردت الطالبتان فعلاً، ولم تعودا إلى المدرسة إلا بقرار من المحكمة.

وقفة رابعة: أشد فيها الانتباه إلى أن القانون الفرنسي لم يكن أول قنبلة تنفجر في حضن الجاليات المسلمة في أوروبا ولن يكون الأخير، فقد سبقه قانون مكافحة الإرهاب البريطاني الذي يستهدف المسلمين وحدهم، كما سبقه قرار الاتحاد الأوروبي والكثير من الدول الأوروبية بتجميد أموال جمعيات خيرية إسلامية، وإصدار الاتحاد الأوروبي القائمة السوداء الأوروبية وهي نسخة طبق الأصل عن القائمة السوداء الأمريكية، التي تعتبر غالبية الحركات والجامعات والأحزاب الإسلامية والوطنية جماعات إرهابية، ومن ضمنها حركة حماس وحركة الجهاد الإسلامي وحزب الله والقاعدة وطالبان.

وأخشى أن يكون قرار مجلس بلدية مدينة 'كارينو' الإيطالية بإغلاق مسجد المدينة، بداية موجة القنابل القادمة التي ستنفجر في حضن الجاليات الإسلامية في أوروبا، بعد قانون حكومة شيراك بمنع ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية الفرنسية.

❊❊❊

نظرة الغرب إلى الحجاب

البرقع مقابل البكيني

«البرقع مقابل البكيني فسوق المرأة الأمريكية» عنوان لمقال سطره د.هنري ماكوو يبدي من خلاله تقديره للحياء كصفة ملازمة للفتاه المسلمة كما لا يخفي احترامه للمرأة المسلمة التي تكرس حياتها لأسرتها وإعداد النشء وتربيتهم. وعلى الوجه الآخر يبوح بما يضمره من استياء نتيجة الانحطاط القيمي والهياج الجنسي الذي تعيشه الفتاة الأمريكية .

د. هنري ماكوو- أستاذ جامعي ومخترع لعبة (scruples) الشهيرة ومؤلف وباحث متخصص في الشؤون النسوية والحركات التحررية .المقال يعكس مدى إعجاب بعض المنصفين من دعاة التحرير في الغرب بقيمنا الإسلامية رغم اختلاف الإيدلوجيات والتوجهات . وقد أثار مقال د.هنري ردود أفعال في الشارع الامريكي بين مؤيد ومعارض .

صورتان متناقضتان

يقول د. هنري في مقاله (على حائط مكتبي صورتان ، الأولى صورة امرأة مسلمة تلبس البرقع – النقاب أو الغطاء أو الحجاب – وبجانبها صورة متسابقة جمال أمريكية لا تلبس شيئا سوى البكيني ، المرأة الأولى تغطت تماماً عن العامة والأخرى مكشوفة تماماً)هكذا كانت مقدمة المقالة والتي تعتبر مدخلاً لعرض نموذجين مختلفين في التوجهات والسلوكيات .

حرب متعددة الأهداف

يشير الكاتب إلى الدوافع الخفية لحرب الغرب على الأمة العربية والإسلامية

موضحاً أنها حرب ذات أبعاد سياسة وثقافية وأخلاقية، إذ أنها تستهدف ثروات ومدخرات الأمة، إضافة إلى سلبها من أثمن ما تملك: دينها، وكنوزها الثقافية والأخلاقية. وعلى صعيد المرأة فاستبدال البرقع وما يحمله من قيم بالبكيني كناية عن التعري والتفسخ. يقول الكاتب (دور المرأة في صميم أي ثقافة، فإلى جانب سرقة نفط العرب فإن الحرب في الشرق الأوسط إنما هي لتجريد العرب من دينهم وثقافتهم واستبدال البرقع بالبكيني)!!

دفاعاً عن القيم

يمتدح د.هنري القيم الأخلاقية للحجاب أو البرقع ، أو ما يستر المرأة المسلمة فيقول (لست خبيراً في شئوون النساء المسلمات وأحب الجمال النسائي كثيراً مما لا يدعوني للدفاع عن البرقع هنا ، لكني أدافع عن بعض من القيم التي يمثلها البرقع لي) ويضيف قائلاً(بالنسبة لي البرقع (التستر) يمثل تكريس المرأة نفسها لزوجها وعائلتها ، هم فقط يرونها وذالك تأكيداً لخصوصيتها).

وكأن د.هنري يتفق هنا مع ما ذهبت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها لما سئلت: أي النساء أفضل؟ قالت (التي لا تعرف عيب المقال ، ولا تهدي لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لزوجها ، والإبقاء على رعاية أولادها) أو كما قالت رضي الله عنها.

المسلمة مربية أجيال

ويشيد الكاتب بمهمة ورسالة المسلمة والمتمثل في حرصها على بيتها واهتمامها بإعداد النشء الصالح فيقول (تركيز المرأة المسلمة منصب على بيتها ، العش حيث يولد أطفالها وتتم تربيتهم ، هي الصانعة المحلية ، هي الجذر الذي يُبقي على الحياة الروح للعائلة ..تربي وتدرب أطفالها ..تمد يد العون لزوجها وتكون ملجأ له) .

وماذا عن المرأة الأمريكية ؟

بعد الانتهاء من شرح الصورة الأولى التي على مكتبه وهي صورة المرأة المسلمة ينتقل د. هنري إلى الصورة الثانية فيقول (على النقيض ، ملكة الجمال الأمريكية وهي ترتدي البكيني فهي تختال عارية تقريباً أمام الملايين على شاشات التلفزة....وهي ملك للعامة... تسوق جسمها إلى المزايد الأعلى سعراً ....هي تبيع نفسها بالمزاد العلني كل يوم)

ويضيف (في أمريكا المقياس الثقافي لقيمة المرأة هو جاذبيتها ، وبهذه المعايير تنخفض قيمتها بسرعة ...هي تشغل نفسها وتهلك أعصابها للظهور)

الجنس والعواطف الفارغة

ينتقد د. هنري فترة المراهقة الشاذة التي تعيشها الفتاة الأمريكية حيث التعري والجنس والرذيلة فيقول (كمراهقة قدوتها هي بريتني سبيرز المطربة التي تشبه العرايا ، من شخصية بريتني تتعلم أنها ستكون محبوبة فقط إذا مارست الجنس ... هكذا تتعلم التعلق بالعواطف الفارغة بدلاً من الزواج والحب الحقيقي والصبر).

الفتاة المسترجلة

ثم يعرج الكاتب إلى الآثار السلبية لتلك الحياة الماجنة التي تعيشها الفتاة الأمريكية فيقول (العشرات من الذكور يعرفونها قبل زوجها...تفقد براءتها التي هي جزء من جاذبيتها .. تصبح جامدة وماكرة ..غير قادرة على الحب)

ويشير إلى أن المرأة في المجتمع الأمريكي تجد نفسها منقادة إلى السلوك الذكوري مما يجعلها امرأة عدوانية مضطربة لا تصلح أن تكون زوجة أو أما إنما هي فقط للاستمتاع الجنسي وليس للحب أو التكاثر .

النظام العالمي يكرس العزلة

وينتقد د. هنري نظام الحياة في العالم المعاصر حيث التركيز على الانعزالية والإنفراد فيقول (الأبوة هي قمة التطور البشري، إنها مرحلة التخلص من الانغماس في الشهوات حتى نصبح عباداً لله ...تربية وحياة جديدة) ويضيف قائلاً (النظام العالمي الجديد لا يريدنا أن نصل إلى هذا المستوى من الرشد .. حيث يريدوننا منفردين منعزلين.. جائعين جنسياً ويقدم لنا الصور الفاضحة بديلاً للزواج) .

ويكشف د. هنري زيف ادعاءات تحرير المرأة ويصفها بالخدعة القاسية إذ يقول : (تحرير المرأة خدعة من خدع النظام العالمي الجديد ، خدعة قاسية أغوت النساء الأمريكيات وخربت الحضارة الغربية)

ويؤكد الكاتب أن تحرير المرأة يمثل تهديداً للمسلمين فيقول (لقد دمرت الملايين وتمثل تهديداً كبيراً للمسلمين).

وأخيراً يقول د. هنري [لا أدافع عن البرقع (أو النقاب – أو الحجاب) لكن إلى حد ما بعض القيم التي يمثلها ، بصفة خاصة عندما تهب المرأة نفسها لزوجها وعائلتها والتواضع والوقار يستلزم مني هذه الوقفة].

– أليس هذا الكاتب و أمثاله أكثر صدقاً وجرأة وقولاً للحق من الكثير من دعاة العلمانية في بلادنا؟!

– ألا يكفي المرأة المسلمة فخراً بأن يشيد بمكارم أخلاقها من ليسوا على دينها ؟

بعد هذا كله

ألا يمكن أن نرى شباب اليوم يتخلون عن النمط الغربي في الحياة ويعودون إلى شرقيتهم.

الحرب على الحجاب:

جاء الإسلام مكملاً لمكارم الأخلاق مناديًا بالبُعد عن كل ما يثير الغرائز ويحرك الشهوات، وذلك من أجل إصلاح البشرية والسمو بها عن مرحلة البهيمية والفوضى إلى مراتب مرتفعة من العفة والطهارة. قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ولأن الشهوات والغرائز الطبيعية جزء أساسي من تكوين الإنسان فقد سعى الإسلام لضبطها وتوجيهها التوجيه الصحيح، فشرع الزواج قناة وحيدة لإشباع الغرائز والشهوات وإنشاء الأسرة التي هي النواة الرئيسية للمجتمع الإسلامي.

ولأن النفس أمارة بالسوء فقد حرَّم الإسلام كل ما يمكن أن يؤدي إلى إثارة غرائز الإنسان أو تهييج شهواته، لذا جاء الأمر الرباني للمسلمين بأن يغضوا من أبصارهم وأمر المسلمات بارتداء الحجاب يحفظن به أنفسهن وحرَّم عليهن التبرج والسفور ومخالطة الرجال غير المحارم، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور].

ولأن أمر الحجاب في الإسلام عظيم فقد جاء الأمر الرباني للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام بأن يأمر أزواجه وبناته قبل نساء المؤمنين بارتداء الحجاب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب]. فإذا كان الأمر بالحجاب قد بدأ بأزواج النبي ﷺ وهن العفيفات الشريفات الطاهرات فكيف ببقية نساء المؤمنين وخاصة في هذا الزمان الذي انتشرت فيه الفتن وصار فيه الدين غريباً؟

من أجل ذلك توعَّد الله عز وجل المتبرجات المظهرات لزينتهن لغير أزواجهن بالعذاب الأليم يوم القيامة قال ﷺ في وصف أهل النار (صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا).

التبرج هو إظهار المرأة زينتها لغير محارمها وهو من الأمور المحرمة في الإسلام لأن المقصود منه هو إثارة شهوات الرجال من غير الأزواج وإحداث الفتنة في المجتمع.

أما الحجاب فهو نقيض التبرج ويُقصد به الستر والإخفاء ومنه حاجب العين الذي يمنع عنها الغبار والأتربة وأشعة الشمس وحاجب الملوك أو الرؤساء والذي يمنع عنهم الدخلاء والمتطفلين والمتسكعين.

وتقتضي فطرة الإنسان العفة والطهارة ولذلك نجد أن إبليس اللعين عندما أغوى آدم عليه السلام وزوجه بالأكل من الشجرة المحرمة وتم له ما أراد، سقطت عنهما ثيابهما وبدت لهما عورتاهما فأخذا يلتقطان من أوراق الشجر ليخفياهما وذلك التصرف الطبيعي والتلقائي الذي قاما به من دون أن يأمرهما به أحد يدل على أن

الأصل في الفطرة البشرية العفة والطهارة وإخفاء العورات.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢)﴾ [الأعراف].

كانت النساء قبل الإسلام وفي عهد الجاهلية يتبرجن ويلبسن الملابس الخفيفة ويمشين في الأسواق ويعرضن أنفسهن على الرجال، لذلك جاء الأمر من عند الله لنساء المسلمين بارتداء الحجاب، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)﴾ [الأحزاب].

أما في العصر الحديث فقد تفننت النساء في ابتداع أساليب جديدة من التبرج والسفور وصارت المصانع الغربية تمد بلاد المسلمين بالملابس الضيقة الشفافة التي تكشف أكثر مما تستر، وتزيد من مفاتن النساء. وغمرت هذه المصانع أسواق المسلمين بأنواع كثيرة من المساحيق والطلاء والعطور المثيرة للشهوات وأنواع شتى ومتباينة من الأحذية التي تجعل النساء يتمايلن في مشيتهن ويبالغن في التغنج والدلال.

وعندما بدأت مظاهر الصحوة الإسلامية تدب في العديد من بلدان العالم وانتشر الحجاب في بلاد المسلمين ووسط بناتهم في الدول الغربية هاج الغرب وماج وتجاوب معه بعض أنصار الرذيلة ودعاة الفجور في بلاد المسلمين وبدأوا في محاربة الحجاب الإسلامي حرباً لا هوادة فيها ووصفوا الحجاب بأنه يغطي على عقل المرأة وأنه جزء من اضطهاد الإسلام لها ونعتوا المحجبات بنعوت لا تليق ورموهن بالتخلف والرجعية والاستسلام لسطوة الرجل وغيرها مما ينعق به الناعقون.

اتخذت هذه الحملة أشكالاً عديدة فمرة نسمع من يقول : إن الحجاب يعزل المرأة عن بقية شرائح المجتمع ، ويحرمها من دورها .

وظهر من يدعو إلى (تحرير) المرأة وغيرها من الدعاوى الساقطة المردودة، ونسى هؤلاء الذين لا هم لهم إلا تحرير المرأة من قيمها واحترامها لنفسها أن الإسلام ما شرع الحجاب إلا صوناً للمرأة المسلمة ، وتكريما لها ، وإعلاءً لقدرها ، وتقديراً لدورها في المجتمع إذ إن المرأة المحجبة تكون بمنأى عن مشاكسات الذئاب البشرية ومصانة ممن لا يريدون لها إلا أن تكون متاعاً ومكاناً لتفريغ الشهوات.

وعندما يشعر هؤلاء أن ما ساقوه من حجج يتساقط من تلقاء نفسه نسبة لضعفه وعدم موضوعيته نجدهم يلجأون إلى الاستشهاد برأي بعض من يتدثرون برداء الدين من المستغربين والماركسيين وذوي المصالح الخاصة على أنهم من العلماء المسلمين فيلوون لهم أعناق الحقائق ويستشهدون بأدلة ليست في مكانها ويفسرون الأحكام الإسلامية حسب هواهم متوهمين أن هذه الافتراءات سوف تنطلي على الأمة الإسلامية، وما دروا أن علماء الأمة الأمناء على دينها واقفون لهم بالمرصاد مفندين حججهم ودعاواهم.

وعندما تأكد لهم أن الحجاب الإسلامي أصبح مطلبًا شعبيًا وأنه آخذ في الانتشار وسط نساء المسلمين لم يجدوا بداً من إعلان الحرب عليه، وخلال الفترة الماضية قامت العديد من الدول الغربية بشن حملة ضارية على الحجاب في المدارس ودواوين الحكومة.

تشتد هذه الحملة في فرنسا حيث فصلت السلطات التعليمية العديد من الطالبات المسلمات لإصرارهن على ارتداء الحجاب وتجلى اهتمام الحكومة الفرنسية بمحاربة الحجاب عندما أعلن رئيس الوزراء الفرنسي أنه قد آن الأوان

(لاستئصال) الحجاب من المجتمع الفرنسي وأنه لا مكان في المدارس الفرنسية لطالبة محجبة، وأكد ذلك الرئيس الفرنسي جاك شيراك الذي زاد عليه أن الحجاب يمثِّل مشكلة ثقافية تهدد المجتمع الفرنسي العلماني ويجب التصدي لها بكل صرامة وحسم.

وتمتد الحملة المسعورة وتشمل الولايات المتحدة حيث قضت محاكمها بتأييد فصل العديد من الطالبات المحجبات، كما تتعرض النساء المحجبات للاعتداء بسبب الحجاب الذي يبدو أنه يثير حساسية بعض المتعصبين في المجتمع الأمريكي.

وفي هولندا تأخذ الحملة على الإرهاب طابعاً أكثر سخونة حيث تشن الصحف التي تتبع لليمين المتطرف حملة متواصلة شعواء على الحجاب وأشادت هذه الصحف بمبدأ مدير إحدى المدارس والذي رفض السماح لطالبة محجبة بدخول المدرسة وبرر موقفه بأنه (يؤمن بالمساواة التامة بين الرجل والمرأة) وأن حجاب المرأة المسلمة يرمز (للظلم الواقع على عاتقها).

وفي المقابل نجد نماذج مشرقة لبعض الدول الأوروبية التي اعترفت بالحجاب كجزء من الخصوصية والحرية الشخصية للمسلمات حيث قضت المحكمة العليا الألمانية بحق المسلمات في ارتداء الحجاب ومنعت الجهات المعنية من التغول على ذلك الحق وضمان تمتع المسلمين به.

كذلك فإن الدنمارك قد أقرت بهذا الحق للمسلمات حيث قضت محكمة دنماركية بفصل معلم ومعلمة قاما بطرد طالبة صومالية من المدرسة لإصرارها على ارتداء الحجاب ، .وقررت المحكمة أن ارتداء الحجاب لا يتنافى مع التعاليم المعمول بها.

ومما يؤسف له أن بعض المسؤولين في دول عربية وإسلامية انساقوا وراء هذه الحملة الجائرة وانضموا للهجمة الشرسة على الحجاب وحملوا لواءها وأعلنوا

- صراحة - منعه وسط طالبات المدارس وقاموا بفصل من أصرت عليه بوصفه جزءًا أصيلاً من هويتها الدينية وشخصيتها العامة.

ففي مصر على سبيل المثال تتعرض النساء المحجبات لمضايقات عديدة، فقد تم قبل فترة منع مذيعة بإحدى القنوات الفضائية من الظهور على شاشة التليفزيون بسبب ارتدائها للحجاب بدعوى أنه (يثير الحساسيات)، وتم كذلك فصل امرأة محجبة تعمل مساعدة طيار في إحدى شركات الطيران بسبب رفضها التخلي عن الحجاب رغم أن ارتداءه لم يؤثر على كفاءتها ومقدرتها على أداء عملها.

كما أقدمت مدرسة (شامبليون) بالإسكندرية والتابعة للسفارة الفرنسية بفصل طالبة مسلمة بسبب الحجاب مما أثار الرأي العام المصري ضد إدارة المدرسة، وتدخل شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي وهاجم إدارة المدرسة ودعاها للالتزام بالتقاليد الإسلامية السائدة في مصر، وكذلك قامت إدارة إحدى المدارس الخاصة بطرد معلمة محجبة وهددتها بالفصل وعدم إعادتها للعمل إلا بعد أن تخلعه.. والأمثلة على تلك الحملة كثيرة ومتعددة.

وفي تونس أقدمت إدارة معهد القنال الثانوي على منع ٣٨ طالبة من أداء الامتحانات بسبب ارتدائهن الحجاب، كما أقدمت إدارة معهد المنذر بن عكاز على رفض السماح لطالبات مسلمات بأداء الامتحانات بسبب الحجاب، وبالرغم من أن بعضهن اضطررن إلى خلع الحجاب ليتمكن من أداء الامتحانات إلا أن مدير المعهد أصر على رفضه واشترط على الطالبات الذهاب إلى قسم الشرطة وتوقيع تعهد بعدم ارتداء الحجاب مستقبلاً!!

وكانت السلطات التعليمية التونسية قد أصدرت في عام ١٩٨١م منشوراً قضى باعتبار الحجاب رمزاً طائفياً يجب محاربته ومنعه في المدارس الثانوية والجامعات، مما

أدى لزيادة التمييز ضد المحجبات في الجامعات وحتى بعد تخرجهن حيث يواجهن صعوبات بالغة في الحصول على وظائف حكومية.

ويبقى السؤال الكبير هو: لماذا اتحد كل هؤلاء على محاربة الحجاب؟ ولماذا هذه الحملة الشرسة وفي هذا التوقيت بالذات؟ هل السبب هو فوبيا الحجاب والخوف من كل ما يرمز للإسلام؟ أم أنها حالة مرضية وترسبات نفسية كانت تعتمل في دواخل مرضى النفوس ، ولم تجد فرصة للخروج إلى العلن بهذه الصورة إلا بعد تداعيات أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تبعها من تطورات عالمية وما يسمى بالحرب على الإرهاب؟!

ولكن يبقى أصحاب القلوب المطمئنة العامرة بالإيمان على يقين بأن العاصفة سوف تزول ، وأن سحب التشكيك سوف تنقشع عما قريب ، وأن الله متم نوره ولو كره الكافرون.